لمحات

من الدراسات المصرية القديمة

د. باهور لبيب

الكتاب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة

الكاتب: د. باهور لبيب

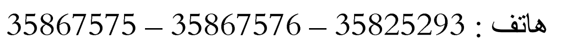
الطبعة: 2018



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية



هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

لبيب ، د. باهور

لمحات من الدراسات المصرية القديمة / د. باهور لبيب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

224 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **4 – 651 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **27710 / 2018**

لمحات من الدراسات المصرية القديمة





مقدمة

أتيحت لي فرصة البحث في الدراسات المصرية القديمة، ونشرت عدة بحوث موجزة في سنوات متعددة وفي مجلات متفرقة كالمقتطف، ومجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، ومجلة القانون والاقتصاد، ومجلة المهندسين، ومجلة الكتاب، والثقافة، والرسالة، ومجلة بلادي، ثم رأيت أن أجمعها مع جزء آخر في هذا الموجز الذي سميته «لمحات من الدراسات المصرية القديمة».

وأرجو أن يسد هذا الكتاب فراغا صغيرًا من الفراغ الكبير الذي سبقتنا إلى ملئه الأمم الأخرى، لا سيما وإن مصرنا العزيزة في حاجة الآن إلى تربية قومية حقة عمادها دراسة تاريخ مصر القديم، ومعرفة تاريخ وحدة وادي النيل في عصور مصر الزاهرة.

والله المستعان يوفقنا إلى ما فيه خير البلاد في ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فؤاد الأول ملك وادي النيل.

ولا يفوتني أن أشكر إدارة المقتطف الغرَّاء لاهتمامها بطبع هذا الكتاب وجعله هدية المقتطف السنوية إلى مشتركيها الكرام.

باهور لبيب

عين شمس أول سبتمبر 1947

الفصل الأول

بحوث تاريخية

1- تطور التاريخ المصري القديم.

2- وحدة وادي النيل.

3- أهم أعلام وحدة وادي النيل.

(أ) الملك بن حبت رع

(ب) الملك أمنمحات الأول

(حـ) الملك أحمس الأول

(د) الملك رمسيس الثاني

4- الحروب بين ملوك الشمال والجنوب

5- الهيكسوس

6- الملك إيخ – إن – أتون

7- منصب الوزير

8- حاكم السودان العام

9- كتاب هيرودوت في مصر

تطور التاريخ المصري القديم

اعتاد علماء التاريخ المصري القديم أن يقسموه إلى عصور رئيسية أطلق على كل منها اسم معين. غير أننا لو تعمقنا في دراسة التاريخ وآثاره نرى أن معظم هذا التقسيم الشائع بتسميته غير مطابق للحقيقة والواقع.

فالعصر الأول: يقصد به الفترة التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرة الأولى وأطلق عليه «عصر ما قبل التاريخ» على أساس أن التاريخ يبدأ عند وجود الكتابة ويعتمد على النقوش المدونة فقط.

على أن هناك بلادا لم تعرف الكتابة قديمًا، وأخرى عرفت الكتابة ولم نستطع قراءتها، وبالرغم من هذا فإن لها تاريخا. فتكون الكتابة وتدوين الحوادث إذن ليست الوسائل الوحيدة للتاريخ. بل هناك وسائل أخرى أساسها علم الإنسان وعلم الحيوان، وعلم طبقات الأرض، وعلم الآثار، وقد أرشدتنا هذه العلوم مجتمعة إلى معرفة تاريخ هذا العصر الطويل الذي يبدأ من حوالي سنة **8000** قبل الميلاد إلى سنة **3200** قبل الميلاد، كما أن هذا العصر أول قسم نبدأ به تاريخنا لذلك كله نطلق عليه اسم «فجر التاريخ».

العصران الثاني والثالث: يطلق الأول منهما على عصر الأسرة الأولى والثانية ويسمى بالعصر العتيق، والآخر على عصر بناة الأهرام من

الأسرة الثالثة إلى السادسة ويسمى باسم الدولة القديمة، فيقتطع أصحاب هذا الرأي الأسرتين الأولى والثانية بدعوى أن المرجع في تحديد ذلك إلى بناء الأهرام.

لكننا نرى أن الدولة القديمة تبدأ من الأسرة الأولى وتستمر إلى الأسرة الثامنة أي من حوالي سنة **3200** ق. م إلى سنة **2245** ق. م لأن بناء الأهرام يجب ألا يوضع في المكان الأول ويتخذ أساسا لتقسيم دول التاريخ المصري القديم، لأن التقسيم كان قائمًا على التوحيد السياسي للبلاد تحت رعاية ملك واحد، بعد أن كانت عبارة عن ولاية مفككة [1] والذي كان من نتائجه أن أصبحت البلاد جميعًا ملتفة حول العرش رمز البلاد. ولقد تمت وحدة مصر الأولى على يد الملك مينا (نعرمر) أول ملوك الأسرة الأولى حوالي سنة **3200** ق. م ونطلق عليه اسم «عصر الوحدة الأولى».

العصر الرابع: وهو العصر المتوسط الأول ويشمل الأسرات السابعة إلى العاشرة في نظر المؤرخين، ولكننا ذكرنا أن عصر الوحدة الأولى ينتهي بالأسرة الثامنة، وبذلك يمكننا أن نطلق على المدة من الأسرة التاسعة إلى منتصف الحادية عشرة اسم «عصر تفكك الوحدة الأولى» وذلك لأن التوحيد السياسي قد تفككت أوصاله في هذه الفترة من **2245** ق. م إلى **2070** ق. م.

---

(1) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التحديد الذي اتخذه المؤرخون - وهو بناء الأهرام - لا يؤيدهم فيما ذهبوا إليه من أن الدولة القديمة تنتهي بالأسرة السادسة فسنرى فيما بعد أن الملك أمنمحات على سبيل المثال وغيره من بعده قد أقاموا أهراما مختلفة.

العصر الخامس: يطلق عليه المؤرخون عصر الدولة الوسطى ويشمل من أول الأسرة الحادية عشرة إلى آخر الأسرة الثانية عشرة، ونرى هنا أن الوحدة السياسية قد عادت إلى البلاد على يد الملك « نب – حبت – رع » منتوحتب الثاني حوالي سنة **2070** ق. م. أي من منتصف الأسرة الحادية عشرة، واستمرت حتى منتصف الأسرة الثالثة عشرة (حوالي سنة **1757** ق.م) ونسميه « عصر الوحدة الثانية ».

العصر السادس: ويطلق عليه العصر المتوسط الثاني ويشمل من الأسرة الثالثة عشرة إلى آخر الأسرة السابعة عشرة. ونحن هنا نسميه عصر تفكك الوحدة الثانية من منتصف الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة الخامسة عشرة أي من سنة **1757** ق. م إلى سنة **1730** ق. م. وعصر حكم الغزاة الهيكسوس من حوالي سنة **1730** ق. م إلى سنة **1580** ق. م ويشمل من الأسرة الخامسة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة.

العصر السابع: عصر الدولة الحديثة ويبدأ من الأسرة الثامنة عشرة إلى أواخر الأسرة العشرين. ونحن نسميه «عصر الوحدة الثالثة» من حوالي سنة **1580** ق. م إلى حوالي سنة **1085** ق. م (أي أنه بدأ على يد بطل حرب الاستقلال الملك أحمس الأول واستمر حتى عهد رسيس التاسع).

وأهم ما لوحظ من مزايا عصور الوحدة القومية بجانب الازدهار في الساسة والحضارة ووحدة وادي النيل أن ملوك تلك العصور وجهوا نظرهم إلى سياسة خارجية خاصة نستطيع أن نقول إنها أصبحت سياسة

تقليدية لكل ملك قوي يعتلي عرش مصر الموحدة، أخذها الخلف عن السلف لدرء الخطر عن أجزاء المملكة المصرية الموحدة تحت عرش ملك واحد.

(العصر الثامن): ويبدأ من الأسرة الحادية والعشرين إلى أواخر الأسرة الخامسة والعشرين أي من حوالي سنة **1085** إلى سنة **663** قبل الميلاد ويطلق عليه عصر اضمحلال الإمبراطورية ونحن هنا نسميه عصر تفكك الوحدة الثالثة.

وقد أطلقنا عليه هذه التسمية لأنه قبل وفاة آخر ملك من ملوك الرهامسة حوالي سنة **1085** قبل الميلاد ضعفت سلطة الملك وقوي نفوذ كهنة آمون وخملت الروح الحربية بين المصريين. وقد أدت هذه العوامل التي ظهرت عند نهاية عصر الوحدة الثالثة إلى انقسام مصر إلى دولتين: إحداهما جنوبية عاصمتها مدينة طيبة ويحكمها الملك حريحور، وأخرى شمالية عاصمتها مدينة تانيس ويحكمها الملك نيسو بانب دد **nesubanebded** [(2)] المعروف باسم ممنديس.

وقد اضطر الملك في هذا العصر إلى استخدام الجنود المرتزقة من الليبيين وغيرهم مما دعا إلى إسناد أكبر الوظائف الحربية إلى الليبيين، وقد

(2) يظن كثير من العلماء أن **nesubanebded** كان حاكما أو أميرا لمنطقة تانيس، والواقع أنه كان رئيس كهنة آمون، وأن حريحور كان رئيسا لكهنة آمون، وقد ظن عنه **kees** بأنه كان قائدا للجيش المصري، ولكنا نرى أن حريحور جمع بين رئاسة الجيش ورئاسة كهنة آمون قبل توليه الحكم.

ساعدهم هذا إلى اعتلاء عرش مصر وتأسيس ما هو معروف في التاريخ بالأسرة الثانية والعشرين.

وكانت الممالك المجاورة لمصر آخذة في النهوض في تلك الآونة أي في عصر الأسرتين الثالثة والعشرين، والرابعة والعشرين؛ فانتهزت فرصة التفكك والضعف في مصر وغارت عليها من كل صوم ولم يقدر ملوك مصر الضعفاء على حماية البلاد وضاعت أملاكها الآسيوية وفصلت النوبة عن مصر.

سعى ملوك النوبة (3) المتمصرين بمساعدة كهنة آمون على ضم مصر بقسميها ونجح الملك بعنخي في تأسيس أسرة نوبية في مصر وهي الأسرة الخامسة والعشرين غير أن سلطتهم كانت ضعيفة في الدلتا لأن عددا من الأمراء المحليين الأقوياء كان ينازعهم السلطة.

وفي ذلك الوقت كانت دولة الآشوريين قد اتسعت في آسيا حتى بلغت حدودها فلسطين مما سهَّل لهم التغلب على الدلتا حوالي سنة **670** قبل الميلاد. ولكن الملوك النوبيين ظلوا في حرب معهم نحو عشر سنوات وأخيرًا استطاع ملك الآشوريين المدعو آشور بانيبال طرد النوبيين فصارت مصر تحت حكمه مدة عشر سنوات وبقيت بها حامية منهم وعيَّن حكاما مصريين على الأقاليم المختلفة.

---

(3) تمصرت النوبة تماما قبل انفصالها وعبد أهلها الآلهة المصرية لا سيما الإله آمون مما زاد فيها من نفوذ كهنته وكانت عاصمة ملوك النوبة المتمصرين بلدة باتا.

(العصر التاسع): ويطلق عليه العصر الصاوي أو عصر النهضة المصرية، وعصر الأسرة السادسة والعشرين. أما نحن فنسميه هنا بعصر وحدة مصر الرابعة، وذلك لأن إبسماتيك كان في أول الأمر أميرا على سايس (صا الحجر) من قبل الآشوريين إلا أنه عمل على التخلص من حكم الآشوريين فاستمال باقي الأمراء إليه وجلب الكثير من الجنود المرتزقة من الإغريق وقبل المساعدة التي قدمها له ملك ليديا الذي كان يريد هو أيضًا التخلص من سيادة الآشوريين؛ فتمكن إبسماتيك حوالي سنة **663** قبل الميلاد من طرد الحامية الآشورية ثم إخضاع الأمراء الآخرين مستعينًا ببعضهم على البعض الآخر حتى استقل بمصر وأعاد إلى مصر وحدتها الرابعة واعتلى عرش مصر باسم الملك إبسماتيك الأول وخلفه ابنه نخاو ونهج نهجه، وعاد إلى مصر مجدها ثم تولى الحكم بعدهما الملك أحمس الثاني.

وفي عهد إبسماتيك الثالث آخر ملوك هذه الوحدة أي حوالي سنة **525** قبل الميلاد تغلب قمبيز ملك الفرس على مصر.

(العصر العاشر): ويطلق عليه عصر استيلاء الفرس على مصر أو عصر الأسرة السابعة والعشرين، ونحن نسميه بعصر تفكك الوحدة الرابعة أي من حوالي سنة **525** إلى سنة **405** ق. م.

ولقد حكم مصر في هذا العصر بعد قمبيز الملك دارا الأول وأراد أن يصلح ما أفسده سلفه من هدم المعابد المصرية إلى قتل المعبود المصري العجل أبيس فأبدى احتراما كبيرًا للمعبودات المصرية وشيَّد معبدا لآمون

بواحة سيوة، وبالرغم من تحبب الفرس إلى المصريين تمكن المصريون من طرد الفرس وأسس الفراعنة [4] الأسرة الثامنة والعشرين سنة **405** ق.م.

(العصر الحادي عشر): عصر وحدة مصر الخامسة ويشمل حكم ملوك الأسرة الثامنة والعشرين ثم حكم مصر ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم طويلًا إذ تمكن الفرس من استعادة غزو مصر في عهد الملك نختنبو الثاني حوالي سنة **342** قبل الميلاد، وبقيت مصر تحت حكمهم إلى سنة **332** ق. م أي إلى أن انتزعها الإغريق على يد الإسكندر الأكبر.

(العصر الثاني عشر): العصر اليوناني الروماني من سنة **332** قبل الميلاد إلى سنة **640** ميلادية ونحن نطلق عليه اسم العصر القبطي المصري.

(العصر الثالث عشر): من سنة **640** ميلادية ونحن نطلق عليه العصر القبطي العربي.

---

(4) ورد اسم أول فرعون لهذه الأسرة في نص ديموتيقي «آمون هور» بينما في نصوص المؤرخ مانيتون Amyratos.

وحدة وادي النيل في التاريخ القديم

كان وادي النيل منذ فجر التاريخ أي حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد من البحر المتوسط شمالًا إلى حدود الحبشة جنوبًا، الذي يضم الوجهين البحري والقبلي ومعظم السودان حاليًا – مرتبط ارتباطا وثيقا – وكانت العلاقات بين شعوبه قائمة.

ولقد تطورت هذه العلاقات بطبيعة الحال تطورا تدريجيا حتى وصلت ذروة الرابطة الوثقى.

فإن اهتمام الفراعنة كان قويًا للسعي إلى توحيد أجزاء وادي النيل ويرجع هذا إلى سببين أساسيين: أولهما العلاقة الطبيعية والحيوية، وثانيهما العلاقة القومية والسياسية.

وكان الدافع إلى هذا الاهتمام بوحدة وادي النيل جريان نهر واحد، في واد واحد، ووطن واحد. وبالتالي ضرورة تبادل المعرفة والمنفعة بين سكان هذا الوادي وسائر أنحاء أطرافه المتدانية والمتباعدة ليكون التعاون بينهم سهلًا ميسورا حول عرش ملك واحد وحكومة واحدة.

فإن المشروعات المائية والتبادل الاقتصادي لا بد للمحافظة عليهما أن يكون تحت سلطة مركزية واحدة، لا سيما وأنه لا توجد حواجز أو حدود طبيعية بين أجزاء هذا الوادي.

وكان من نتائج الاهتمام بالوحدة، أن التحم الملك مينا الذي يلقب بنعرمر حوالي سنة 3200 قبل الميلاد مع خصمه حاكم الوجه البحري في مكان مصر القديمة الحالية وأراق ما أراق من دماء في ميدان الحرب لا للغزو والفتح بل لصالح مصر العام حتى وفق أخيرًا لضم الوجهين البحري والقبلي.

منذ ذلك التاريخ، تاريخ اتحاد الوجهين، شعر الجزء المتحد من الوادي بقيمة الاتحاد والالتفاف حول عرش ملك واحد، وتذوق الشعب ثمار هذا الاتحاد ونعيم هذا الالتفاف.

وهنا لأول مرة في التاريخ القديم ابتدأ تعاون الشعب والحكومة على وجوب ضم شمل شتات باقي أجزاء الوادي (أي السودان) تحت لواء ملك الوادي ملك مصر.

وكان من الطبيعي أن الوادي الذي يجري فيه نهر واحد، والذي تقوم أجزاؤه على أسس واحدة، يجب أن يكون ملتفا حول عرش ملك واحد، وحكومة واحدة ونظام واحد، لضمان تبادل المنفعة العامة والمصالح المشتركة بين جميع الناس سواء بسواء لإقامة الحق والعدل بين الجميع، والدفاع عن أرض الوطن من اعتداء البلاد المجاورة.

وكانت حالة مصر المتحدة قد بلغت من الحضارة شأوا فاقت به وقتئذ كل بلاد العالم. فهي أول بلد ساد فيه نظام الملكية في حكومة مركزية تهدف إلى إدارة المصلحة المشتركة بين سكان وادي النيل.

وكان لهذه الحضارة أثر ظاهر في مختلف نواحي العلوم والهندسة والفنون والآداب والسياسة والقانون مما جعل مصر الفرعونية مصدر الحضارات القديمة ومهد العلوم والمعارف في العالم القديم.

إذ أن الملك مينا هو أول من أنشأ وظيفة الوزير في العالم القديم، وكانت مهمته القيام بالأعمال الإدارية والتفرغ لما فيه استتباب الأمن وسن القوانين وشق الترع وإقامة الجسور وغيرها من المصالح التي تهم الشعب المصري السوداني.

ولهذا ارتضى أهل الشمال والجنوب على وحدة وادي النيل تحت تاج الملك مينا؛ فجمع النيل السعيد بذلك شعوب الوادي قاصيها ودانيها حول عرش مصر، وساهم كل فرد بنصيب في ترقية بلاده وإسعادها فيما خصص له.

وكان من نتيجة هذه الوحدة أن أخذ النظام القضائي شكلًا رسميًا فدونت القوانين ونظمت المحاكم بعد أن أخذت اللغة المصرية والكتابة بها شكلا ثابتًا لم تحد عنه طول حكم الفراعنة.

ومن الطريف أن نظام التسجيل المعروف لدينا الآن كان متبعا في ذلك الوقت وكانت الملكية لا تنتقل إلا بالتسجيل، كما روعي في الوصية أن تكتب على يد أخصائي بحضور شهود – وكان يكتب الموصي أنه حائز على جميع قواه العقلية والجسدية، وكذلك عرف في ذلك العصر نظام الضرائب على الأملاك: المنقول منها والثابت.

نهضت مصر حينذاك نهضة علمية تدعو إلى الإعجاب فقد عرف التخصص في المهن فكان هناك طبيب للعيون وطبيب للأسنان ومهندس ري وهكذا.

ويرجع إلى عصر وحدة وادي النيل الأولى تقدم حساب الدورة الشمسية وتقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرًا، وتقسيم النهار والليل إلى ساعات، وكذلك عرف هذا العصر بتقدم فنون المعمار والنحت.

وكان مصريو ذلك العصر أول من نفخ في البوق في النداءات العسكرية، وأول من دقّ على الطبل لتنظيم السير في المناورات الحربية بخطوات عسكرية واحدة، وأول من ابتدأ السير في الاستعراضات العسكرية بالساق اليسرى على خلاف ما تعتقد الأمم الحديثة الآن بأنها هي التي ابتكرت هذا النظام.

وكأن النيل قد شعر بحاجيات سكنه فزادهم ربطا أوفر، وتكاتف سكان الوادي في تقوية الروابط بينهم وازدياد النفع المتبادل، فوجهوا همهم للنيل فسكنوا واديه الخصيب وأخذوا يراقبون مواعيد فيضانه فزرعوا وحصدوا ورسموا الأعمال الهندسية فأقاموا الجسور وبنوا الخزانات وحفروا الترع، فسهل لهم السفر في قوارب وسفن لتبادل المعرفة ومبادلة التجارة والمصالح. ولا سيما أن اختلاف أنواع المحاصيل المصرية والسودانية طبقا لاختلاف الحرارة في البلدين ساعد على مبادلة التجارة وتقدمها.

وكفل النيل بذلك لهذا الوادي وسكانه كل أسباب قيام الحضارة واستقرارها فيه وفي قيام الصناعات التي ترتبت على وجود الزراعة كالنسيج وغيره.

هذه أمثلة قليلة لمزايا عصر وحدة وادي النيل الأولى يظهر فيها بعض ما وصل إليه المصريون في نواحي النشاط المختلفة من نتائج رائعة كانت ثمرة اتحادهم والتفافهم حول عرش ملك واحد وتمسكهم به في ولاء ووئام.

والذي يقدر ما للنيل من مآثر غراء على مصر والسودان وسائر بلدان واديه من أهمية حيوية، لا تكبر عليه مغالاة المصريين في وسمه وسما مقدسًا، ورفعه إلى مرتبة الآلهة وإطلاقهم عليه الاسم المسجل تسجيلا خالدا «حاعبي» إذ أنه صاحب الفضل الأول في حفظ حياتهم، وهذا ما أوحى إليه هيكاتيه الجغرافي اليوناني كلمته المشهورة «مصر هبة النيل» فنقلها عنه المؤرخ "هيرودوت" وقد صدقا في ذلك لأن كيان مصر الاقتصادي قائم على أساس الري والزراعة، فمن طميه الذي يجلب من الحبشة عامًا بعد عام تكونت تربة الوادي الخصيبة السوداء، وقد كان المصريون القدماء يطلقون على مصر اسم "كمت" أي "الأرض السوداء" وبقيت في اللغة القبطية **Xhmi** أي مصر.

وينبع النيل من الجنوب ويتجه شمالًا على عكس نهر الفرات الذي ينبع من الشمال ويتجه جنوبًا، ولذلك سماه قدماء المصريين "النهر

المعكوس" بالنسبة لنيلهم، وهذا يدل على ما كان للنيل من أثر في تفكير قدماء المصريين.

واحتفلوا بعبادة النيل وأقاموا له الأعياد السنوية، ولا يزال المصريون يحتفلون بفيضانه إلى اليوم وفاء لما أنعم عليه من خصوبة ونماء.

وقد ترامت أخبار ما عم مصر والسودان من إصلاح في ذلك العصر إلى الأقاليم المجاورة للوادي، فرحبت ليبيا بفكرة الانضمام تحت لواء ملك وادي النيل، وتم لمصر ذلك بعد حرب لم يطل أمدها.

فعلَّمت مصر العالم القديم قواعد الحضارة وأصولها ونشرت نور مدينتها على جاراتها مختلفة في ذلك شدة أو ضعفًا بحسب ما هيأت لها الظروف ذلك.

تزعمت مصر بذلك أقطار الشرق في تاريخها القديم واشتركت في تقديم التفكير البشري كما تتزعم هي الآن أمم الشرق في التاريخ الحديث.

وظلت مصر والسودان محتفظتين بوحدتهما زمنا طويلًا وأخذت العلاقات تقوى وتزداد بين القطرين الشقيقين حتى حوالي سنة **2800** قبل الميلاد حين راجت سوق التجارة بين شمال الوادي وجنوبه عن طريق القوافل.

وكانت تلك القوافل تختلف تمام الاختلاف عما نتصوره الآن عند ذكر اسمها من صف الجمال الذي يخترق الصحراء، إلى صف من الحمير

يحمل كل منها العاج والذهب الأبنوسي من السودان، كما كانت تستعمل أيضًا في نقل المحاصيل الزراعية من مصر إلى السودان. وكانت تستعمل السفن أيضًا لنقل البضائع وغيرها بين القطرين بالنيل.

إلا أن هذا الطريق المائي بين مصر والسودان كان ضيقًا وعرا – وقد حدت أهمية هذا الطريق الحيوي بالكثير من ملوك مصر الأقدمين للاهتمام بدراسته، وكان أول ما ظهر من هذا الاهتمام أن رأى الملك مري – أن– رع حوالي سنة **2570** قبل الميلاد تكليف أحد كبار موظفيه المختصين المدعو «أوني» حفر خمس قنوات عند مناطق الشلالات لتسهيل سير السفن بين مصر والسودان.

والظاهر أن حفر هذه القنوات كان جزءا من سياسة عامة تنطوي على ترقية الملاحة وعلى كشف كل الجهات الجنوبية من الوادي كشفا منظمًا للتعرف عليها ولمعرفة السودان كامل المعرفة بأرضه وأهله وموارده، وتحسين طرق التجارة والعمل على إنمائها بين مصر والسودان، فملكوا بذلك زمام البر والبحر، وكان هذا النشاط تعهدا مستمرًا للمصلحة العامة المشتركة بين القطرين الشقيقين، لأن مصر والسودان مرتبطان بروابط طبيعية وقومية – كما ذكرنا–.

ولقد كان توحيد شمال الوادي وجنوبه سببًا في تسهيل رحلات نهرية استكشافية كقيام أحد أمراء أسوان المدعو **Hw –f– Hor** بأربع رحلات إلى السودان في عهد الملك مري – أن – رع حوالي سنة **2570** قبل الميلاد.

***

ويعتبر Hw –f– Hor هذا في نظر التاريخ الكاشف الأول لمجاهل الأصقاع الواقعة في وسط أفريقيا؛ فكان للسودان أثره العظيم في تسهيل هذا الكشف إذ أنه كان بقعة مصرية آمنة مطمئنة. وظلت مصر محتفظة بوحدتها وبالتالي ظلت وحدة وادي النيل قائمة، وقد أدى الاتحاد إلى كثير من الخير، فركزت جهود بني الوطن مجتمعين إلى سعادته ورفاهيته، وعم الرخاء الزراعي والاقتصادي بلاد وادي النيل زمنا طويلًا إلى أن انقسمت مصر فترة وجيزة بسبب المنازعات الداخلية حتى جاء الملك بن – حبت – رع الذي يلقب بمنتوحتب الثاني في الأسرة المصطلح عليها بأنها الأسرة الحادية عشر فأعاد إلى مصر الفرعونية وحدتها للمرة الثانية حوالي سنة 2072 قبل الميلاد، وكان هذا العصر استمرارا في تقدم الحضارة والمدنية والعلوم، واطرادا في تطور ما وصلوا إليه في عصر الوحدة الأولى.

واقتنع الشعب المصري مرة أخرى بأن رفاهيته وعظمته في الاتحاد وفي الالتفاف حول العرش. ونجح الملك بن – حبت – رع في ضم أجزاء الوادي فوفق ملك مصر لضم السودان ثانية كما سجل ذلك وزير مالية هذا الملك المدعو خيتي على جرانيت أسوان وأصبحت هذه الفكرة الوطنية فكرة وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر برنامجا وطنيا لكل ملك يعتلي عرش مصر.

واستمرت وحدة وادي النيل الثانية مدة من الزمن فأعيد ما بين طرفي الوادي من ود وصفاء، ولكنه في العام التاسع والعشرين من حكم الملك "أمنمحات الأول" أول ملوك الأسرة المصطلح عليها بالأسرة الثانية عشرة.. حوالي سنة **1971** قبل الميلاد بدأ اضطراب على الحدود الجنوبية فأرسل الملك أمنمحات ولي عهده الشاب وشريكه في الحكم المدعو سنوسرت إلى السودان فنجح في تهدئة الحالة.

وعندما تولى سنوسرت بدوره حكم وادي النيل تولى قيادة إحدى الحملات التأديبية بنفسه إلى السودان لتأمين حدود الوادي الجنوبية ضد المغيرين فنجح، وهكذا تجشم من الصعاب ما ذللها اعتقاده بأن سلامة الوطن لا تقوم إلا بوحدة واديه.

ثم التفت الملك المصري إلى أهمية السودان من الناحية الحيوية لمصر فرأى من خير الوسائل لتحقيق أمنيته تعيين «حبجا في» حاكم أسيوط المصري الجنسية حاكما عامًا للسودان محققا بذلك اهتمامه بإدارة شؤون السودان ومؤكدًا بأن نفع السودان وخيره يرتكزان على الانضمام والاتصال لا البعد والانفصال.

وبلغ من إعزاز هذا الحاكم للسودان أنه بالرغم من وجود مقبرة له في أسيوط إلا أنه آثر أن يُدفن في مقر عمله ببلدة «كرما» الواقعة بالقرب من الشلال الرابع مما يدل على أن مصر والسودان كانتا وطنا واحدًا في نظره.

وبعدئذ أجرى هذا الملك سنوسرت تعديلا في سائر الشؤون الكفيلة لنفع القطرين فعدل النظام الإداري في مصر بتعيين وزير ثان إلى جانب الوزير الأول يختص أحدهما بشؤون الوجه البحري ويختص الثاني بشؤون الوجه القبلي.

وفي عهد الملك سنوسرت الثالث حوالي سنة **1887** إلى سنة **1850** قبل الميلاد حفر قناة في النيل في مناطق الشلال الجرانيتية بعد أن تهدمت مع مرور الزمن القناة التي حفرها "أوفي" الذي سبق ذكره في عهد الملك مري – أن – رع، فضمن سنوسرت الثالث بتجديده القناة استقرار الصلة بين مصر والسودان، وسميت هذه القناة بـــ "طريق سنوسرت الجميل"، وقد ظلت هذه القناة مستعملة إلى عهد الملك تحتمس الثالث أحد ملوك عصر الوحدة الثالثة تقريبًا.

وزيادة في تأمين حدود السودان أقام هذا الملك سنوسرت الثالث، حصنين متقابلين أحدهما في سمنه (جنوبي وادي حلفا أي بين الشلالين الثاني والثالث) والآخر في قمه لكي يضمن بذلك سلامة البلاد واستتباب الأمن، ولا تزال آثارها باقية لتتحدث عن الدقة في اختيار مراكز التحصين بما ينم عن روح هندسية بارعة.

ثم أقام عدة قلاع لصد غارات الثائرين ولإمكان مراقبة جميع الطرق الموصلة إلى وادي النيل وللذود عن كيان الوادي وحفظ سلامته.

وهذه القلاع كانت تكون سلسلة من أربع عشرة بلدة محصنة تمتد من هاتين القلعتين جنوب الشلال الثاني وتمتد شمالًا إلى أسوان، وبديهي أن يكون لهذا النجاح العسكري مقابل من الرخاء المادي كما تشهد بذلك بعض النقوش المصرية.

وتحسن الإشارة هنا إلى أن أقدم اتصال مائي بين البحر المتوسط والبحر الأحمر منذ عهد هذا الملك، كان يجري لمسافة معينة متبعا نفس الطريق التي تجري فيها قناة السويس الحالية، وفي هذا ما فيه من مصلحة ومنفعة للسودان.

وقد اقتضى تبادل المنفعة بين مصر والسودان أن يضع الملك أمنمحات الثالث حوالي سنة **1800** قبل الميلاد مقاييس للنيل في بلدة سمنة السابقة الذكر للتعرف بها على أحوال النيل من حيث ارتفاع مياهه أو انخفاضها. وفي الحق أن مسألة النيل ومياهه من أهم مقومات وحدة وادي النيل التي لا غنى للسودانيين والمصريين عنها.

وجعل من هذه المقاييس فضلًا عن فائدتها للري معيارا لرخاء ذوي الأراضي الزراعية وأساسا للنظام المالي تجبى بمقتضاه الضرائب

***

ولست أريد أن أطيل في ذكر أعمال كل ملك من ملوك عصر الوحدة الثانية خاصة وأني أوردت أمثلة عدة تبين مختلف وجوه النشاط المصري في السودان، فمن مشروعات مائية إلى عمرانية إلى حربية.

وغني عن البيان أن المصريين كانوا يبذلون كل ما في وسعهم من جهد لإسعاد السودانيين وتوفير كل خير لهم فسمحوا لإخوانهم السودانيين بالانضواء تحت راية جيش ملك مصر، ومنهم من كان ينتخب ضمن رجال الشرطة أيضًا. وقد استمر الحال على هذا المنوال طوال العهد الفرعوني. وما زالت الشواهد تظهر في كل عصر ودور لمن يمعن النظر حتى الآن. إذ نرى في وقتنا الحاضر بوليسا من السودانيين يسمى «بوليس الهجانة» ومركزهم الرئيسي بلدة عين شمس الأثرية، فنرى أن التاريخ يعيد نفسه ويدل على أن السودان ومصر جزء لا يتجزأ.

واستمرت هذه العلاقات الطيبة في تاريخ البلدين تزداد وتقوى حتى نهاية عصر وحدة مصر الثانية أي حوالي سنة 1750 قبل الميلاد.

وظلت مصر محتفظة بعظمتها طوال أيام مجدها حتى شعر رجال الجيش وحكام الأقاليم بقوتهم فأخذوا يبتعدون عن العرش ويحاول كل منهم الانفراد بالسلطة والجاه، وبدأ التشاحن والتنازع بينهم وقد أدى ذلك إلى ضعف مصر فداهمها العدو المعروف في التاريخ باسم الهيكسوس واستولى على جزء كبير منها كان ذلك حوالي عام 1730 قبل الميلاد وظل الأجنبي يستعمر مصر حوالي قرن ونصف قرن إلى أن شعر المصريون بخطاهم وعرفوا أن التناحر على الحكم والانقسام وعدم الالتفاف حول العرش كان سبب نكبتهم وتفكك وحدتهم واحتلال بلدهم فقاموا قومة رجل واحد ملتفين حول الملك أحمس الأول (بطل

حرب الاستقلال في دورها الأخير) فتمكنوا من طرد المستعمرين الأجانب حوالي سنة **1580** قبل الميلاد من أرض الوطن.

وعادت مصر للمرة الثالثة إلى مجدها القديم بفضل وحدتها والتفافها حول مليكها.

وبعد أن انقشعت غمة الاستعمار بطرد المحتلين وبعد وحدة مصر والتفاف شعبها حول ملك مصر نجد أن العلاقات بين مصر والسودان يتصل حبلها من جديد في صورة رائعة، وكانت هذه الوحدة هي الشعلة الوقادة التي تضيء للوادي سبل الحياة والحضارة.

ونجد أن منصب حاكم السودان العام يعاد ويضاف لشاغله لقب الابن الملكي للسودان وليست كلمة ابن هنا معناها أن يكون الحاكم حقًا من أبناء البيت المالك ولكن هذا اللقب في الواقع معناه أن حاكم السودان مقرب من الملك وله شرف الاتصال بمليك الوادي وفي هذا اللقب إشارة جليلة وجلية إلى إظهار عدم تفريق ملك الوادي بين مصر والسودان من جهة الحكم والإدارة، كما أن فيه أيضًا شعورًا ساميا لأهل السودان بأن ملك مصر قد أرسل لهم من هو في حكم ابنه ليدير دفة شؤون البلاد الشقيقة.

ومن طريف ما يحدثنا به التاريخ القديم في هذا الصدد أنه عندما تولى الملك تحتمس الأول عرش الوادي حوالي سنة **1537** قبل الميلاد

أرادت الحكومة المصرية إرسال نبأ تولية الملك الجديد على عرش الوادي فكتبت ما معناه.

«أمر ملكي إلى حاكم السودان العام، المدعو توري، لكي تعلم أن جلالة الملك تحتمس أصبح ملك الشمال والجنوب ولكي تنشر ألقابه ولكي تعلن بأن حلف اليمين أصبح باسم الملك تحتمس».

وكان من اختصاص حاكم السودان العام تصريف الشؤون الإدارية والإشراف على المسائل القضائية والمالية.

ويحدثنا التاريخ أن كل حاكم عام للسودان كان بإدارته الحازمة يعمل على رخاء البلاد الشقيقة ونشر الأمن فيها، وكان مركز حاكم السودان العام أحد المناصب الكبيرة في تاريخ مصر الفرعونية وله من المسؤوليات ما لا يقل عن منصب الوزير نفسه. فكما كان للملك حق تعيين الوزير فإن له الحق أيضًا في عزله، وكما كان لملك مصر وحده حق تعيين حاكم السودان العام كان له وحده حق عزله.

وكان وجود منصب حاكم السودان العام على هذه الصورة وبهذا اللقب أقوى برهان على اعتبار السودان جزءا من مصر وعلى اعتبار أن السودان أرض مصرية.

ولقد استمر الصفاء ناشرا أجنحته على وادي النيل مصره وسودانه، وزادت الروابط الثقافية بين البلدين فأنشأ ملوك مصر بلادا مصرية في السودان وأقاموا فيها المعابد المصرية لتوحيد اللغة والعبادة بين

أطراف الوادي، فعلى سبيل المثال أقام الملك تحتمس الثالث معبدا على نسق معبد الكرنك لعبادة الإله آمون في بلدة نباتا بالقرب من الشلال الرابع.

كذلك نعلم أن المصريين قد أسسوا مصانع ومتاجر في مختلف أنحاء السودان لكي يسعد أهل السودان من جراء تعليم الحرف والصناعات فيمكن للسودان بذلك أن يجاري مصر في نهضتها الصناعية وفي رقيها التجاري والاقتصادي.

وكانت مظاهر الوادي كله مصبوغة بصبغة واحدة هي الصبغة المصرية فنجد على سبيل المثال في مقبرة «حوى» حاكم السودان العام في عهد الملك توت عنخ آمون حوالي سنة **1340** قبل الميلاد رسما يمثل وفدا سودانيا حضر إلى مصر ليقدم فروض الولاء والطاعة لملك مصر ويحمل الهدايا إليه، ومما يستحق الذكر أن أعضاء هذه البعثة كانوا يرتدون الملابس المصرية، أي أنهم كانوا مصريين في حياتهم الخاصة وحياتهم العامة وبذلك استوى الشعبان المصري والسوداني في النهضة والرقي.

وظلت مصر والسودان محتفظة بوحدتها زمنا طويلًا واستمرت العلاقات تقوى بين مصر والسودان، فقد زار الملك "حور محب" السودان حوالي سنة **1300** وعند رجوعه نراه ممثلا على جدران معبد جبل السلسلة محمولًا في محفة على أكتاف صفوف من جنوده كل صف يتكون من ستة من الجنود يتقدمه فريق من فرق الجيش السوداني. وهذا

يرينا إلى أي حد امتزج السودانيون بالمصريين واشتركوا في أعيادهم وحفلاتهم ويرينا أن فكرة استعمار المصريين للسودان غير صحيحة.

كما كان من أهم أعمال الملك رمسيس الأول الداخلية إصلاح الطريق الموصلة إلى مناجم الذهب بصحراء النوبة الشرقية وهذا يعود بالخير الوفير على مصر والسودان معًا.

ومن الطريف أن نذكر أننا نجد الكهنة في حفلة تتويج الملك رمسيس الثاني الذي حكم من حوالي سنة **1291** إلى سنة **1224** قبل الميلاد يحملون تماثيل بعض الملوك الذين حكموا قبل عهد هذا الملك على الترتيب الآتي: الملك مينا، ثم نب حبت رع، ثم أحمس.

وهكذا يسجل التاريخ أن أقدس ما يمثله الملوك والحكام إيمانهم بتخليد صحائف العزة القومية فتعرض في مواسم جلوسهم على عرش آبائهم وأجدادهم علائم النهضة ومواكب الأمجاد ومفاخر الأجيال، إذ أن هذه الأسماء الثلاثة كانت ترمز في أفكار قدماء المصريين إلى أهم أعلام وحدة وادي النيل.

وخلاصة القول أن الآثار والنصوص تملأ الوادي من الشمال إلى الجنوب، وتنوه بوحدة الأغراض الداخلية والخارجية للقطرين الشقيقين وتؤيد حق مصر في السودان. فالقطران الشقيقان يرتبطان بعرى النيل الوثيقة منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحالي لا غنى لأحدهما عن الآخر، ويعيد الآن التاريخ نفسه في إجماع شعب الوادي – مصره وسودانه–

على الالتفاف حول مليك الوادي فاروقنا المحبوب للسعي لتحقيق أهداف الوادي القومية والحيوية. حفظ الله الملك لمصر ذخرا ولشعب الوادي قدوة وفخرا.

أهم أعلام وحدة وادي النيل

1ـ الملك نب حبت رع

مؤسس الدولة الوسطى (عصر الوحدة الثانية)

حوالي سنة 2070 قبل الميلاد

اختلفت الآراء في تعيين مؤسس الدولة الوسطى [5]، فزعم البعض أن ذلك المؤسس هو أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، أي – في تقديرهم – الملك انتف (واح عنخ) [6]. ورأى آخرون أن المؤسس الحقيقي للدولة الوسطى هو الملك أمنمحات الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة [7].

والرأي عندنا أنه لا هذا ولا ذاك، وإنما هو «نب – حبت – رع »، وذلك لما نورده من اعتبارات فيما يلي:

---

(5) الدولة الوسطى هي القسم الثاني من الأقسام القومية الثلاثة الكبرى التي مر بها التاريخ المصري القديم في عهد الأسرات الفرعونية، وكان فراعنة مصر في أثنائها يحكمون مصر الموحدة.

(6) من أنصار هذا الرأي **Breasted** في كتابه **History of Egypt** صفحة 131، 423.

(7) من هذا الفريق **Junker** في كتابه **Die Aegypter** صفحة 87.

أولًا: يقول أصحاب الرأي الأول أن الملك انتف (واح عنخ) هو مؤسس الدولة الوسطى، لأنه أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، وقد أثبتت الحفائر الأخيرة خطأ هذا الرأي، لأن حفائر المعهد الفرنسي بالقاهرة في منطقة «طود» كشفت لنا عن ملك غير معروف من قبل يدعى انتف (سهرتاوي) [8]، وقد تولى الملك قبل انتف (واح عنخ) فليس لنا بعد ذلك أن نعتبر أنتف (واح عنخ) أول ملوك الأسرة الحادية عشرة، ولهذا لا نأخذ بهذا الرأي. ثم إننا لا نرى أن نجعل مبدأ الأسرة بدءًا للدولة، لأن الدولة إنما تبدأ حين تتم وحدة البلاد، فتتجمع أقسامها تحت سلطان ملك واحد. والواقع أن انتف (واح عنخ) لم يقم بهذا التوحيد، وإنما رجعت إلى مصر الوحدة القومية على يد «نب – حبت – رع» بعد أن سادها الفوضى قبيل أواخر الأسرة الثامنة، وبعد أن انقسمت البلاد المصرية إلى قسمين متعاصرين، أحدهما تحت حكم ملوك البيت الإهناسي، والآخر تحت حكم ملوك طيبة [9]. ويثبت ذلك أن الملك نب – حبت – رع قد سجل على حوائط معبده في «جبلين» مفاخرته بقهره المصرين والأجانب على السواء، فنجده يصف نفسه على المناظر المنقوشة على إحدى القطع بأنه «قهر رؤساء القطرين، ووطد الأمن في الشمال والجنوب وكذا في البلاد الأجنبية، وفي البلدتين (أي العاصمتين)، فهذا النص يدل على أن وحد الوجهين، وأخضع البلاد المجاورة – هذا وإن المناظرة المنقوشة تحت

(8) راجع Vandier, un Nouvel \ntiq. De la xl. Dyn. (Bulletin de l'Inst Fr. XXXVI)

(9) وطبيعي أن هذا التوحيد الذي تم في عهد نب - حبت - رع لم يتم في يوم وليلة، بل مر بأدوار طويلة وحروب كثيرة بين ملوك أهناسيا أي ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وبين أمراء طيبة الذين كونوا في التاريخ ما هو معروف بالأسرة الحادية عشرة.

ذلك النص على نفس القطعة السابقة تمثل الملك وهو يضرب أربعة من أعدائه، وهم يمثلون بالتتابع (1) المصريين (2) النوبيين (3) الآسيويين (4) الليبيين؛ فالعدو الأول ولو أنه لا توجد فوقه كتابة تدل عليه إلا أن شكله يدل على أنه مصري، ومعنى ذلك أن الملك حارب المصريين وانتصر عليهم سواء في ذلك أهل مصر الوسطى والوجه البحري، ولم يميز الملك بين عدوه المصري وعدوه الأجنبي فوضع المصري مع أعدائه الأجانب، وبعبارة أخرى أن الملك لم يفرق بين انتصاره على الوجه البحري أو مصر الوسطى وانتصاراته على البلاد المجاورة لمصر.

ويظهر أن هذه الحرب التي شنها هذا الملك على مصر الوسطى أدت إلى سقوط آخر ملوك الأسرة العاشرة في إهناسيا، وبذلك تمكن هذا الملك من حكم مصر الموحدة.

أما العدو الآسيوي المهزوم فيرمز إلى نصر الملك على الآسيويين القاطنين في شمال الدلتا الشرقية، وهذا يؤيد ما نقوله من أن نب – حبت – رع وحَّد مصر، لأنه لا يستطيع هزيمة الآسيويين إلا بعد أن يتم له الاستيلاء على مصر الوسطى والدلتا.

أما النصر على العدو الليبي فلا يتصور إلا إذا كانت سيادة الملك قد امتدت على حدود مصر الغربية.

ثانيًا: والدليل الثاني على ما نرى أننا نجد اسم الملك «نب – حبت – رع» يظهر كثيرًا على آثار متأخرة، لأنه كان معتبرا أهم ملك في الأسرة

الطيبية الأولى. بل نجد برهانا أدل على ذلك إذ قد ورد اسم هذا الملك في معبد الرامسيوم [10] بين اسم الملك مينا مؤسس الدولة القديمة واسم الملك أحمس الأول مؤسس الدولة الحديثة؛ فنجد الكهنة في حفلة تتويج رمسيس الثاني يحملون تماثيل بعض الملوك الذين حكموا قبل عهد رمسيس الثاني على هذا الترتيب: الملك مينا، ثم الملك نب – حبت رع، ثم الملك أحمس الأول، ثم باقي ملوك الأسرة الثامنة عشرة – ما عدا الملكة حتشبسوت – ثم ملوك عصر العمارنة، فالملك حور محب، فرمسيس الأول، ثم سيتي الأول، ورمسيس الثاني.

***

وإننا لاحظنا أن اسم هذا الملك قد ذكر بين أسماء مينا وأحمس، وهما ملكان يرمزان في عقلية المصريين القدماء إلى ابتداء عصرين عظيمين في التاريخ المصري القديم، فمينا هو مؤسس الدولة القديمة، وأحمس هو مؤسس الدولة الحديثة. وهذا الوضع يدل بداهة على أن «نب – حبت – رع» كان يعتبر أيضًا أنه ابتدأ عصرا جديدًا ممتازا في تاريخ مصر، وهو المعروف بـــ «عصر الدولة الوسطى» لأنه وحَّد مصر كما وحَّدها من قبله مينا ومن بعده أحمس [11] فمن هذا استدل على عظمة «نب – حبت رع» تلك العظمة التي نوه بها من خلفه من الملوك لتوحيد مصر من جديد.

(10)R. Lepsius, Denkmaler aus Aegypten und Acthiopien, III tafel 163

(11) ومما يلاحظ في هؤلاء الثلاثة أنهم من الجنوب، وأن كلا منهم استولى على الدلتا، أي أن كلا منهم حكم وجهي القطر المصري على أساس غزوه للدلتا ثم مد سلطانه على الشمال.

ثالثا: من الواضح أن الملك "نب – حبت رع" كان اسمه قبل أن يتم له توحيد مصر «نب – حبت رع" ذا التاج الأبيض المقدس «منتوحتب»، فلما وحَّد الوجهين استبدل باسمه الحوريسي اسمًا مناسبًا لموقفه الجديد وهو «سيما تاوي»، أي موحد الأرضين، (والمقصود بهما الوجهين القبلي والبحري)، فأصبح اسمه "نب – حبت رع السيماتاوي"[12]. فهذا الاسم أيضًا يدل على أن الملك « نب – حبت رع» قد حكم الوجهين القبلي والبحري، وكذلك شمل نفس التغيير لقب "نبتي"، أما الاسم الشخصي فقد بقي في الحالتين «منتوحتب». وكذلك اسم العرش أو اسم التتويج، فقد بقي في الحالتين واحدًا في النطق، ولا عبرة باختلاف الرسم[13] وقد كان الباحثون من قبل يعتقدون أن اسمي «نب – حبت رع ذي التاج الأبيض، ونب – حبت – رع السيماتاوي » أطلقا على ملكين مختلفين لا على ملك واحد، ويقولون إن معبد الدير البحري الذين يرجع تاريخه

(12) ولتأييد هذا أضيف أن ظاهرة تغيير أسماء الملوك موجودة في تاريخ مصر القديم قبل عصر هذا الملك، ولنذكر خاسخم على سبيل المثال فقد غير اسمه إلى خاسخموي. راجع:
k. sethe, Zunt و G. Moller, Namenwechsel von Konigen des olten Reichs 1. Namenswechsel des Konigs pipj (طبيعي بعده اخناتون وتوت غنخ آمون وحرمه).

(13) نجد اختلافا كبيرا بين العلماء حول قراءة خرطوش هذا الملك ففريق من العلماء وعلى رأسهم برستد (Anc. Records, Hist. o tg.) ودريتون مثلا Et. Drioton et l. Vandler les peoples de porient Meditenineen, 1988 p. 234) يلقبه بلقب « نب - خرو - رع »، وفريق آخر من العلماء وعلى رأسهم تافيل في كتابه Naville, the Xl Dyn. Temple at Dier - Bahari p. 3- 5 و Sethe, az, Hall, History of the Nur East (1927) 62 يلقبه بحق بلقب « نب - حبت - رع ». أي أن الخلاف منحصر في قراءة العلامة المقذاف هل تقرأ « خرو » أو « حبت »، ولكن كلا من الأستاذين Naville و Sethe قد أثبت بحق أن هذه العلامة « المقذاف » تقرأ في هذه « حبت »، لا سيما وأن اسم هذا الملك قد ورد لنا في بردية Abbott مكتوبا منتهيا بحرف التاء، فهذا يثبت لنا أن علامة « المقذاف » لا يمكن في هذه الحالة أن تنطق « خرو ». وعلى هذا الأساس يكون النطق الأصح لاسم هذا الملك هو « نب - حبت - رع » ومن الجائز أن اختلاف العلماء في قراءة هذه العلامة هو الذي أدى البعض إلى أن يظن أن هناك ملكين بدلا من ملك واحد.

إلى الأسرة الحادية عشرة [14] إنما بناه ملكان اسم أحدهما «نب – حبت رع – ذي التاج الأبيض»، واسم الثاني «نب – حبت – رع (نب – خرو – رع) السيماتاوي».

ولكن البحوث الفنية المعمارية كانت تناقض فرضهم وتضعف حجتهم، لأن **H. Bonnet** [15] أثبت أن معبد منتوحتب "نب – حبت – رع" الموجود بالدير البحري من بناء ملك واحد لا ملكين.. أما نحن فقد بينا أن الملك حمل الاسمين جميعًا، ورفضنا قول الذين جعلوه ملكين حكمًا على التعاقب، ونحن بهذا نقدم برهانا جديدًا على صحة رأي **Bonnet**. فلنا إذن أن نفترض أن الملك «نب – حبت – رع» بدأ في بناء هذا المعبد قبل توحيد البلاد المصرية ثم انتهى من بنائه بعد التوحيد [16].

رابعًا: مما يؤيد قيام هذا الملك بتحقيق الوحدة المصرية تمثال له في المتحف المصري يمثله لابسا تاج الوجه البحري الأحمر.

---

(14) قوة هذا الملك وعظمته تتجلى بأوضح بيان في معبده الجنائزي في الدير البحري، فإنه بعد أن تمكن من القضاء على الحروب الأهلية، وبعد أن عمل على راحة الشعب وعلى وجود السلام والتقدم بعد عصر الفوضى والاضطراب، عمل في بناء معبده العظيم الذي كان يعتبر في عصره أكبر وأهم بناء في العاصمة طيبة، وهو يقع جنوبي معبد حتشبسوت، وقد ابتدأت الحفائر للبحث عن هذا المعبد سنة 1903، وقام بها الأستاذان Naville و Hall ، وكانت نتيجة حفرهما أنهما أخرجها للعالم بناء عظيما لا يخضع لقواعد البناء التي كانت معروفة قبل ذلك، وهذا المعبد قد أوحى فيما بعد إلى المهندس Sen - n - mut بالفكرة التي بنى عليها معبد الدير البحري الخاص بالملكة حتشبسوت.

(15) H. Bannet: Zur Bangeschichte des Mentuhoteptompels (a, z 60 40)

(16) فلكل هذه الأسباب مجتمعة سأجعل من «نب ـ حبت ـ رع ذي التاج الأبيض» و«نب ـ حبت ـ رع السيماتاوي» شخصية واحدة تحت اسم الملك «نب ـ حبت ـ رع» منتوحتب الثاني.

خامسًا: نجد رسما لهذا الملك في جهة «شط الرجال» [17] (بالقرب من أسوان)، يحمل على رأسه تاج الوجهين القبلي والبحري، وذلك يؤيد النتيجة السابقة.

فمن كل هذه الأدلة يثبت لنا أن «نب – حبت – رع» أول من وحد المملكة المصرية في عهد الأسرة الحادية عشرة، وعلى هذا الأساس يكون هو المؤسس الحقيقي للدولة الوسطى، وليس أنتف الأول.

وكذلك لا يمكن الأخذ بالرأي الثاني، وهو رأي يونكر وغيره من العلماء، من أن أمنمحات الأول هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، لأننا أثبتنا الآن أن أول من قام بتوحيد المملكة في هذا العهد هو الملك «نب – حبت – رع»، وهو سابق لأمنمحات، ونحن نعلم تمام العلم أن توحيد المملكة استمر في عهد من خلفه من الملوك، فحادث استيلاء «نب – حبت – رع» على كل أرض مصر وتوحيدها من جديد حادث تاريخي مهم جدًا.

وعلى العموم فقد كان هذا الملك رجلًا عظيمًا وحَّد البلاد، فبدأ بذلك عصرا جديدًا ممتازا في تاريخ مصر. وقد أنشأ عاصمة جديدة هي طيبة، فاشتركت هذه المدينة لأول مرة في الحياة السياسية، وامتد نفوذ إلهها آمون في الحياة الدينية. وكان هذا الملك بناءً كبيرًا وإداريا عظيمًا، وقد استطاع فوق ذلك أن يوجه عنايته للسياسة الخارجية بعد توحيده

(17) انظر: Maspero: the Dawn of Civilisation p 463.

البلاد المصرية، وسيطرته على النوبيين [18] في الجنوب فحارب قبائل العامو [19] في الشمال الشرق والليبيين في الشمال الغربي [20]. ولعل تساند هذه العلل وتماسك تلك الحلقات – من نصوص وآثار ومقارنة – مما يرفع الشك ويزيل الخلاف.

---

(18) ونجد على النقوش الموجودة على الصخور بجهة أسوان أحد موظفي مالية هذا الملك المدعو خيتي واقفا في حضرة الملك «نب ـ حبت ـ رع»، وبجانب تلك الرسوم نجد النص الآتي: -
«في السنة الحادية والأبعين من حكم الملك "نب ـ حبت – رع" أتى حامل ختم الملك ظافرا وعاد بالسفن من واوات » فمن هذا النص نستنتج تاريخيًا أنه في عهد «نب ـ حبت ـ رع» هذا قد أرسلت حملة إلى إحدى بلاد النوبة (الواوات). ومما يؤكد ذلك أن لدينا قطعة من معبده، وهي الآن في متحف جنيف، رسم عليها أسير ملون باللون الأسود لون أهالي بلاد النوبة، وكذلك عرفنا محاربته للنوبيين من نصوص ونقوش معبده في جبلين كما بينا سابقًا. ومما تجدر ملاحظته هنا أن تاريخ هذه الغزوة هو السنة الحادية والأربعين من حكم هذا الملك، مما يثبت لنا أن منتوحتب الثاني «نب ـ حبت ـ رع» قد حكم على الأقل إحدى وأربعين سنة، ومما يدل على طول مدة حكم هذا الملك أيضًا، أنه توجد لوحة حجرية في متحف تورين لأحد موظفي هذا الملك المدعو **Meiw** وأهمية هذه اللوحة أنها تثبت لنا أنه قد حكم على الأقل ستا وأربعين سنة، بل أكثر من ذلك، فقد وصل إلينا مدة حكم هذا الملك على بردية تورين مقدرة بإحدى وخمسين سنة، وقد مكنه طول مدة حكمه هذا أن ينهي مشروعاته العظيمة. **Farina, ll papiro die Re, Roma 1938.**

(19) لدينا قطعتان حجريتان مكسورتان من نص تاريخي تفيدان أن الملك "نب- حبت – رع" حارب قبائل العامو الساكنة على حدود مصر الشرقية، وكذلك وجدنا رسوما للعامو وللأسيويين في معبده أي أنه ثبت لنا تاريخيا أن «نب ـ حبت ـ رع» هذا قد حارب العامو. وبما أننا نعرف أن العامو يسكنون على حدود مصر الشمالية الشرقية، فإننا نستنتج توا أن الملك الذي يحارب هؤلاء الأقوام لا بد أن يكون أولًا مسيطرا على الدلتا حتى يستطيع أن يتفرغ لمحاربتهم، لأنه لو كان أهل الدلتا معادين للملك لقطعوا عليه خط الرجعة، ولهلك الملك وجيشه، وهذا من أهم الأدلة التي تؤيد سيطرة الملك على الوجه البحري.

(20) عرفنا محاربته لأهل ليبيا من نصوص ونقوش معبده.

بـ الملك أمنمحات الأول [21]

كيفية اعتلائه العرش:

عقب وفاة الملك منتوحتب الرابع (نب – تاوى – رع) آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة بغير وارث قام نزاع بين الأمراء [22] على تولي الحكم ويظهر أنه لم يكن بينهم أحد ذو شخصية بارزة. لهذا نرى أن أمنمحات – وقد كان وزيرا لآخر ملوك الأسرة الحادية عشرة – يتطلع إلى الملك ويمهد لنفسه بما أذاعه في البلاد من نبوءة ادعى وجودها منذ عصر صنفرو، وهي تصف ما سيحل بمصر من الخراب وتنادي بأنه سيظهر ملك من الجنوب اسمه «أميني» وهو مختصر (أمنمحات) يحكم الوجهين القبلي والبحري حكمًا صالحًا فيوطد حكمه طمأنينة الناس وفرحهم.

ولقد ساعد على تحقيق مأربه واعتلائه العرش ما عرف عنه وهو وزير من نفوذ كبير فقد كان يحمل ألقابا سامية غير الوزارة.

---

(21) حكم من عام 2000 قبل الميلاد إلى عام 1970 ق. م. وليلاحظ الخطأ الشائع في بعض المؤلفات العربية من إيراد اسمه بالعين (امنحعت) أو بالياء (امنمحيت) بدلا من الألف وهذا الخطأ منشأه التعريب من المصرية القديمة. وليلاحظ أني أخالف كثيرين من العلماء في عدم عده مؤسس الدولة الوسطى وليلاحظ أن اسمه يبدأ بلفظ الإله «آمون» وأنه يمكننا أن نستنتج من ذلك أن صاحبه من الجهة التي كانت عبادة الإله آمون سائدة فيها في ذلك الحين وعلى ذلك يكون أمنمحات الأول من جهة الأقصر وأرمنت.

(22) هؤلاء الأمراء كانوا عبارة عن ملوك صنار في أقاليمهم فلكل منهم جيشه الخاص وحاشيته الخاصة ومقبرته الخاصة التي حفرها في صخور عاصمة ملكه.

على أن بعض العلماء يشك في أن الملك أمنمحات هذا هو أمنمحات وزير الملك منتوحتب الرابع آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة على أحدث الآراء، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لنا اجتماع العوامل المختلفة على تأييد وجهة نظرنا. فإنه مسلم من ناحية بأن الملك منتوحتب الرابع توفي عن غير وارث، وأن أحدًا من الأمراء لم يثبت أنه كان إذ ذاك يسمى باسم أمنمحات، وأن هذا الاسم كان على وجه اليقين لوزير الملك المتوفى، وأن هذا الوزير كان ذا سطوة ونفوذ فليس هناك ما يدعو إلى الوقوف عن ترجيح الرأي بأن يغتصب هذا الوزير الملك خصوصًا، وأن التاريخ من ناحية ثانية قد ضرب لنا أمثلة أخرى لمثل هذه الحالة عند ما قام الوزير «يارعمسو» نفسه ملكًا باسم رمسيس الأول، وعندما انتزع القائد "حور محب" العرش وتسمى باسم الملك «حور محب»

على أن هذا المنطق تؤيده أدلة تاريخية أخرى فكيف يمكن أن نجمع بين ما ورد في النبوءة السابقة الذكر من أن ملكًا من الجنوب سيتولى الحكم وبين ما هو ثابت من أن هذا الوزير كان من الجهة المذكورة، لو لم يكن ما ذهب رأينا إليه صحيحًا.

ما اتخذه في سبيل تأييد عرشه وأهم أعماله:

ما إن أحست البلاد المجاورة بأزمة الحكم في مصر حتى حشدت جنودها على الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية تطلعا إلى آمال الغزو فبادر أمنمحات فورًا إلى طرد العدو بحزم وشدة شكيمة من تلك الحدود فأعاد الطمأنينة إلى البلاد وكسب ثقة رعاياه.

أما الأمراء والحكام فقد سعى إلى استمالتهم بما منحهم من إقطاعيات وما وسَّعه من دائرة أراضي بعضهم كما فعل مثلًا مع ختوم حوتب الأول إذ عينه حاكما على منعات خوفو (بني حسن) ثم أقطعه بعد ذلك إقليم قسم الوعل وذلك مكافأة له على إخلاصه له ومساعدته إياه في حروبه الداخلية والخارجية.

وجرى الملك أمنمحات الأول على سياسة توحيد الكلمة بين المتخاصمين فأخذ يطوف في القطر ويفض التزاعات بين الحكام ويبسط العدل.

وقد اقتضت الحكمة من ذلك الملك أن يهدم من سلطة حكام الأقاليم بإقامة كبار الموظفين منافسين لهم في النفوذ وجرى على تلك السياسة الإدارية ملوك الأسرة الثانية عشرة من بعده حتى زال ما للحكام من سطوة نهائيًا.

وقد راعى الملك في توزيع السلطات الإدارية أن يكون لولي عهده قسط فيها حتى يلم شيئا فشيئا بمختلف نواحي الحكم ويتدرب عليه ويمهد له السبيل ضمانا لبقاء العرش لخلفه فأشركه معه في الحكم إشراكا فعليًا عشر سنوات كاملة قبل وفاته. وقد جرى على هذا النحو خلفاؤه من بعده، ولعل ما أوعز إليه باتخاذ هذا التدبير تدبير مؤامرة غير موفقة لاغتياله.

وقد تطلب تركيز السلطة الإدارية في العاصمة، نقلها من طيبة (لم يكن مكانها يتوسط القطر إذ هي نائبة عن مصر الشمالية وقريبة من الحدود الجنوبية) إلى آتيتاوي (ومكانها الآن بالفيوم بالقرب من بلدة اللشت الحالية وعلى بعد أربعة أميال من جنوبي منف). وإلى جانب هذا التعليل الإداري الذي يستند إلى معنى «آتيتاوي» وهو قابضة الأرضين (أي الوجهين القبلي والبحري) قد تكون العلة في اختيار العاصمة الجديدة بين منف والفيوم متصلة بمشروعات الري العظيمة التي بدأت في ذلك العصر ولا سيما أن معظم الأراضي بجوار منف كانت ملكًا للبيوت القديمة التي أصبحت الآن ملكًا للتاج ومن ممتلكات الملك.

وإذا أضفنا إلى واقعة بدئه حكمه باختياره موقع عاصمته الجديدة بين منف والفيوم، وجود مقبرة له في شكل هرم بالقرب من الفيوم ووجود هرم ابنه سنوسرت الأول في جهة الفيوم أيضًا ووجود لوحة حجرية له في بلدة أبجيج بالفيوم، وكذلك وجود بقايا مسلة له ما زالت كائنة في مزارع تلك البلدة، رأينا في ذلك إدحاضا صريحًا لما يزعمه بعض المؤرخين من أن اهتمام قدماء المصريين بجهة الفيوم قد بدأ في عهد الملك أمنمحات الثالث، وتأييدا لما نقوله من أن عناية ملوك الأسرة الثانية عشرة بها ترجع إلى عهد الملك أمنمحات الأول.

بعد أن فرغ الملك أمنمحات الأول من التنظيم الإداري للبلاد بدأ في إرسال البعثات إلى منطقة سيناء لاستغلال المناجم واستخرج مسحوق معدن النحاس لتنمية موارد البلاد المالية، وقد سار باقي ملوك هذه

الأسرة على ما بدأ به هذا الملك في هذا الصدد. ولقد ظن بعض العلماء أن إرسال البعثات إلى سيناء لم يكن قد بدئ فيه في عهد الملك أمنمحات الأول وأنه قد استقل بذلك دون من أتى بعده من ملوك هذه الأسرة. غير أن هذا القول مردود بما وجدناه في سيناء من آثار الملك أمنمحات ذاته. ويجدر بنا أن نذكر أن أهم ما كان يستخرج من مناجم سيناء هو مادة تسمى «الملخيت» [23] كانوا يطحنونها ثم يعمدون إلى تسخين المسحوق الناتج إلى درجة حرارة عالية فيحصلون منها على معدن النحاس. وهذا المعدن كان من أهم موارد الدولة في ذلك الحين، بل اتخذه ملوك هذه الأسرة مقوما ماليا في التعامل.

وقد زاملت هذه البعثات بعثات أخرى لاستغلال المحاجر؛ فقد ورد في النصوص أن هذا الملك بعث موظفيه إلى وادي الحمامات لجلب حجر البرشيا وهو أحد الأحجار الجميلة التي كانت تستخرج من الجهة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ليصنع منها الملوك تماثيلهم وتوابيتهم.

وأقام هذا الملك حصنا أطلق عليه «جدار الملك» في وادي طميلات لا لحماية حدود الدلتا فحسب، بل لمراقبة القوافل الأسيوية الرحالة مما

---

(23) لا يوجد النحاس في مصر معدنا متفاعلا في الطبيعة ولكنه موجود في مركباته ومع ذلك فقد عرفه واستعمله قدماء المصريين منذ فجر التاريخ، وكانوا أول من اكتشفه في العالم، وأهم خامات النحاس المعروفة في مصر هي «الملخيت» واسمه باللغة المصرية القديمة «شمت» وهو مكون من كربونات النحاس القاعدية ولونه أخضر وهو يكثر في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية، ويعد أقدم وأهم خامات النحاس التي استعملها قدماء المصريين. وقد استعملوه كذلك في أغراض شتى كتكحيل العيون والتلوين باللون الأخضر وكذلك في عمل الطبقة الزجاجية فوق القاشاني وفي عمل الخرز.

يدل على يقظة هذا الملك وحذره من أولئك الأسيويين، وقد دلتنا النصوص على أن اليقظة كانت شديدة والحراسة دقيقة في هذا الحصن.

ثم شيَّد الملك أمنمحات الأول في طيبة مسقط رأسه معبدا عظيمًا للإله آمون. كما بنى -كما ذكرنا - على شكل هرم مقبرة له بالقرب من الفيوم. ولما كان الملوك قد جروا على إقامة بلدة بجوار كل هرم يسكن فيها من ساهموا في بناء هذه الدار الخالدة من مهندسين وصناع وعمال ومراقبي العمل والنظام من رجال الجيش وكهنة وغيرهم فقد أقام هذا الملك بجوار هرمه بلدة كانت تسمى «كانفرو».

أما سياسته الخارجية فقد قلنا فما سبق إنه وقت أن ولي الحكم الملك أمنمحات الأول تطلع الأسيويون في الشمال الشرقي إلى مصر، والنوبيون في جنوبها إلى تهديد الحدود المصرية وإنه بادر إلى ردهم على أعقابهم.

وقد حدث بعد أربعة وعشرين سنة من توليه الحكم أن قامت اضطرابات جديدة على الحدود الشمالية الشرقية من قبل الآسيويين فأرسل الملك حملة عسكرية قوية بقيادة قائده «نسومنتو» أخضعهم بها إخضاعا لم يقم لهم بعدها قائمة لحين وفاته.

ثم بدأ اضطراب في العام التاسع والعشرين من حكمه على الحدود الجنوبية فأرسل ولي عهده الشاب «سنوسرت» على رأس الحملة لإخضاع النوبيين فأفلح في غزو منطقة الواوات بالنوبة. ولعل تلك

الحملة لم يكن غرضها مجرد إخضاع النوبيين، بل قصد بها أيضًا إلى الاستيلاء على ما اشتهرت به بلاد النوبة من الذهب والعاج وريش النعام والجلود. وهو ما تحقق على يد ولي العهد رئيس الحملة.

وتروي لنا قصة «سنوهي» عن حملة ثالثة بعث فيها الملك بولي عهده سنوسرت على رأس جيش لمعاقبة الليبيين المتمردين على حدود مصر الشمالية الغربية. فعاد ولي العهد بعدد كبير من الأسرى ورؤوس لا تحصى من الماشية. ومع أن القصة لم يرد فيها تاريخ معين لهذه الحملة فإننا نستطيع أن نستنتج أنها تأتي في المرتبة الزمنية بعد الحملتين الأوليتين بما جاء في تلك القصة من أن ولي العهد اضطر في جنح الظلام إلى العودة إلى العاصمة تاركًا رئاسة الحملة إلى أحد قواده بمجرد أن بلغه خبر وفاة والده الملك.

وانتهى حكم هذا الملك بعد ثلاثين عامًا من توليه العرش، ونستطيع أن نقول إنه قد أصابه توفيق كبير في كلتا سياستيه: الداخلية والخارجية، فبينما أفلحت وسائله في تركيز النفوذ في يد صاحب العرش بما كفل معه الاتجاه بجهوده إلى تحقيق الإصلاحات الداخلية نرى أن حملاته العسكرية الثلاث قد أوتيت نجاحا. فلا عجب أن يكون هذا التوفيق المزدوج سببًا في أن: «يعم الأسى رعاياه عند وفاته» كما حدثتنا قصة سنوهي.

حـ الملك أحمس الأول

> لا يُعد هذا الملك من قديم الزمان أول ملوك الأسرة المصطلح عليها بأنها الأسرة الثامنة عشرة فحسب، بل يعتبر أيضًا على رأس عهد تاريخي نسميه الآن عهد وحدة مصر الثالثة (الدولة الحديثة).

وقد حكم أحمس الأول حوالي **22** سنة أي من حوالي سنة **1580** إلى سنة **1558** ق. م وهو ابن الملك الملقب بسقنن رع الثالث والملكة إياح حتب. ويغلب على الظن أنه أخ للملك كاموزا، ولو أن هذه المسألة لا تزال موضع خلاف. وقد تزوج الملك أحمس الأول بالملكة أعحمس نفرتاري.

(**أهم أعمال هذا الملك**):

كان هذا الملك من أعظم الفراعنة الذين جلسوا على عرش مصر، لا لأنه أخرج الهكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد، بل لأنه وضع أساس سياسة داخلية جديدة للبلاد بل وسياسة خارجية سار عليها من جاء بعد من الملوك. وقد عادت هذه السياسة على مصر بفوائد جمة لما أدخله من الأنظمة الإدارية لقيام حكومة مركزية قوية في هذا الحين

ضمانا لإصلاح ما أفسده الهيكسوس ولإصلاح أحوال البلاد الاقتصادية وتوطيد سلطة العرش والقضاء على كل سلطة محلية معارضة.

فنرى الملك أحمس الأول هو القائد الأعلى للجيش وهو في نفس الوقت رئيس للحكومة يتدخل في كل كبيرة وصغيرة، وذلك طبيعي في مثل هذه الأوقات التي تعقب جلاء المحتلين.

وكان على الملك – غير إشرافه على وزرائه – أن يراقب موظفي المالية، وكان النظام المالي في ذلك الحين يقضي بفرض الضرائب السنوية على الأراضي والبهائم والأملاك الأخرى ما عدا المعابد والأملاك الخاصة بالآلهة، وعلى الأخص المملوكة للإله آمون فهي معفاة من الضرائب.

وقد قسم الملك أحمس الأول المملكة المصرية إلى أقسام إدارية، وجعل على رأس كل قسم موظفا يلقب بـــ «حاتي عا» بشرط ألا يتصرف هذا الموظف في أي أمر إلا بعد عرضه على الملك، فكان هذا الحاكم أو الأمير في مركز مماثل لمدير المديرية في الوقت الحاضر.

وأما القرى الصغيرة فكان يعين عليها أحد الكتبة تحت إشراف رئيس، وأهمية وظيفة الكاتب معروفة في مصالح الحكومة حتى اليوم.

ولقد امتدت مظاهر الرخاء المالي إلى الناحية البنائية، ففي عهد هذا الملك فتحت المحاجر من جديد واستخرج الحجر الجيري الأبيض الجميل من محاجر طره (أي بالقرب من المعصرة) واستعملت تلك الأحجار في بناء المعابد لآمون وبتاح وغيرهما.

وقد أصاب التلف والبلى أغلب آثار هذا الملك فنجد بقايا معبد له قرب أبيدوس، ويرجح أنه بني على شكل مدرج مثل معبد الملك منتوحتب الثاني من قبل، والملكة حتشبسوت من بعد. ولم يقتصر النشاط الحربي لهذا الملك على مطاردة الهيكسوس ومتابعتهم إلى فلسطين وتوحيد مصر بل يتعدى ذلك إلى إتمام وحدة وادي النيل تحت عرشه وإخضاع السودان تحت لوائه.

وقد ترك لنا بعض كبار الموظفين تراجم حياتهم وما قاموا به من أعمال توضح لنا تاريخ عصر هذا الملك في السودان، فهذا نص القائد البحري أحمس بن أبانا يحدثنا أن قلب جلالة الملك كان مفعما بالسرور بعد أن أخضع الثوار في السودان ثم أبحر إلى مصر بعد انتصاره.

وكان الملك يقابل إخلاص موظفيه وقواده بمنحهم الأراضي والعبيد، فقد وهب أحمس ابن أبانا – القائد السابق الذكر – جزءا يقدر بخمس أرورات من الأراضي الزراعية (والأرورة عبارة عن مائة ياردة مربعة). وهذا مثل يدل على السلطة المطلقة للملوك في إعطاء الأراضي لمن يريدون. وهناك مثل آخر ولو أنه وصل إلينا من عصر متأخر أي من عصر رمسيس الثاني، ولكن بعض عبارات هذا النص ترجع إلى عهد هذا الملك. وهذا النص عبارة عن قضية معروفة بقضية **Mes** وتفيد أن أحد أجداد **Mes** كان معاصرًا للملك أحمس فوهبه بعض الأراضي.

ولما قام به هذا الملك من جليل الأعمال لوحدة مصر ولوحدة وادي النيل نعلم تمام العلم أنه أُله هو وزوجته بعد وفاتهما في العصور اللاحقة.

د- الملك رمسيس الثاني

رمسيس الثاني هو ابن سيتي الأول من زوجته **tuya** وهو يعد من أعظم ملوك الفراعنة ذيوع اسم وأوسعها شهرة. وقد استمر حوالي سبعة من الفراعنة يسمون أنفسهم باسمه.

وقد حكم الملك رمسيس الثاني حوالي **67** سنة أي من سنة **1291** إلى سنة **1224** قبل الميلاد.

ويعتبر عصره من أزهى عصور الإمبراطورية المصرية كما أن له مثل هذا الاعتبار من جهة وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر. وقد بدأ رمسيس الثاني إصلاحاته الداخلية باستغلال مناجم الذهب في النوبة التي عني والده سيتي من قبل عناية كبرى باستغلال هذه المناجم.

وتذكر لنا النصوص أن حاكم السودان العام في عهد الملك رمسيس الثاني نجح في إصلاح الطريق الموصلة بمناجم الذهب وحفر الآبار ونصب لذلك حجرا أثريا في وادي العلاقي عند كوبان.

وقد اتسعت الإمبراطورية في عهد رمسيس الثاني، فلم تعد طيبة المدينة الفرعونية العظيمة تصلح لأن تكون عاصمة لتلك الإمبراطورية فاختار الملك رمسيس مكانًا بين أنحاء الإمبراطورية التي تشمل سوريا شمالًا وبلاد السودان جنوبًا فوقع اختياره على بلدة تانيس المجاورة

للحدود الأسيوية وسماها «بر رمسيس» وقد وصل إلينا وصف هذه المدينة الجديدة في الأشعار المصرية القديمة، وبانتقال العاصمة إلى تانيس أصبح للدلتا مركزا ممتازا فعظم شأنها.

ويعتبر عصر الملك رمسيس الثاني من أزهى عصور مصر من جهة فن العمارة والحفر فأضخم المعابد تنسب إليه، وكذلك أضخم التماثيل والمسلات. وقد جدد معبد والده في أبيدوس، وأنشأ المعابد في تانيس ومنف والنوبة، كما بنى الرمسيوم بطيبة، وأضاف إلى معبد الأقصر حوشا كبيرًا وصرحا شامخا. أما القاعة الكبرى ذات العمد بالكرنك التي بدأ سيتي بتشييدها فقد أتمه رمسيس الثاني وهي تعتبر من أعظم عمارات العالم القديم والحديث. وأقام في السودان أكثر من ستة معابد وشيد في أبي سنبل أجمل معابد النوبة.

وقد عقد هذا الملك معاهدة دولية مع ملك الحيثيين وهي تعتبر من أقدم المعاهدات الدولية [24].

وقد ذكرنا عند الكلام على الملك "نب – حبت – رع" أن في حفلة تتويج الملك رمسيس الثاني كانت تحمل الكهنة تماثيل بعض الملوك الذين حكموا قبل رمسيس الثاني أمثال الملك مينا، ونب – حبت – رع، وأحمس الأول.

وهذا يرينا أن حفلة تتويج هذا الملك العظيم كانت ذات أهمية تاريخية لاحتفالها أيضًا بذكرى أعلام وحدة وادي النيل إلى جانب الاحتفال بتتويج الملك.

---

(24) أول فرعون أقام سياسة المعاهدات والتحالف هو الملك تحتمس الرابع ابن الملك أمنحتب الثالث فقد عقد معاهدة صداقة مع بلاد الميتاني ضد دولة الحثيين.

الحروب بين ملوك الشمال وملوك الجنوب

قبل عصر وحدة مصر الثانية

وصلت إلينا أخبار الحروب الداخلية، التي قامت بين ملوك أهناسيا في الشمال [25] وملوك طيبة في الجنوب [26] من الطرفين المتحاربين بصورة تجردت نصوصها من معرفة السبب الحقيقي الذي من أجله نشبت تلك الحروب، فيمكن أن يكون سببها:

(أ) خلاف بين الفريقين المتحاربين على منطقة واقعة في حدود طينة (بلدة أزوريس) ادعاها ملوك الشمال لأنفسهم وكانت في يد ملوك الجنوب

(ب) نزاع على الاختصاص الإداري بين موظفي الحدود كالحراس أو موظفي الضرائب في كل من المملكتين الشمالية والجنوبية

(جـ) شعور أمراء الجنوب بالحاجة إلى توسيع حدودهم وشعورهم بقوتهم وبضعف الفريق الآخر

(د) تطلع أمراء الجنوب إلى الرغبة في توحيد مصر مدفوعين إلى ذلك بعامل القومية كما فعل الملك مينا من قبل والملك أحمس الأول فيما بعد.

(25) وكان سلطان فراعنة أهناسيا يمتد من الدلتا وينتهي عند طينة أو بلدة العرابة المدفونة ومقر عاصمتهم بلدة أهناسيا المدينة.

(26) أما نفوذ فراعنة طيبة فكان يمتد من أسوان جنوبا وينتهي عند طينة شمالا.

وإني شخصيا أرجح السبب الأول مع السبب الرابع وذلك لأن الملك خيتي الثالث (واح كارع) وهو من ملوك الشمال اعترف في وصيته لابنه خيتي الرابع (مري كارع) بأنه ندم على تعديه على طينة وقداستها مما اضطر ملك الجنوب إلى الدفاع عن حدود منطقته الشمالية ردا للإهانة وسعيا وراء توحيد القطر المصري كله.

والذي نعلمه عن هذه الحروب هو أن أول ملك من ملوك طيبة ذكر التاريخ أنه حارب البيت الأهناسي هو الملك أنتف الثاني (واح عنخ) وذلك لأنه من الثابت أن المنطقة التي كان يحكمها هذا الملك تبدأ من الفنتين جنوبًا وتنتهي في طينة شمالًا أي في القسم الإداري المصري القديم رقم **8**.

***

وقد عرفنا من لوحة حجرية وجدت في الجورنة مؤرخة من عصر الملك (واح عنخ) وموجودة الآن في المتحف المصري وهي للسمير الأوحد جاري وفيها يذكر: «... بعد الحروب التي نشبت مع ملوك البيت الخبتي في المنطقة الغربية من طينة» ففي استطاعتنا أن نجزم من هذا النص بأن ميدان الحرب بدأ في أقصى المنطقة الشمالية التي كانت تحت حكم الملك أنتف (واح عنخ) أي في بلدة طينة الواقعة في قسم أبيدوس.

والظاهر أن نتيجة هذه الحرب كانت في مصلحة ملك طيبة لأننا نعلم فيما بعد أن حدود هذا الملك الشمالية وصلت إلى منطقة أعلى من

طينة وهي منطقة قسم الثعبان أي أنها وصلت إلى القسم العاشر الإداري من أقسام مصر الإدارية.

***

وقد حافظ هذا الملك على هذه الحدود إلى السنة الخمسين من حكمه لأن بالمتحف المصري لوحة مؤرخة في السنة الخمسين من حكمه يسجل فيها: «... إن حده الشمالي وصل إلى قسم الثعبان» أي أن هذه المنطقة قد اعتبرت حدًا شماليا. وعليه فالنتيجة النهاية هي أنه في السنة الخمسين من حكم (واح عنخ) لم يتم الاستيلاء على إقليم أبيدوس فحسب، بل وصل إلى القسم العاشر.

ولكن حكم ملوك طيبة على هذا القسم العاشر الذي انتصر عليه (واح عنخ) لم يستقر ولم يكن نصيبه الهدوء والسكينة، بل ثارت بعض الأجزاء على من حكموا بعده كما ذكرت لنا لوحة حجرية لموظف يدعى «ايكا أورانتف» فنجد حاكم أسيوط المدعو «تف ايبي» والذي كان يعاصر ويشايع الملك الأهناسي خبتي الثالث (واح كارع) يجلي جيش طيبة في موقعة بحرية على القسم العاشر باسم ملك الشمال ويضطره للرجوع جنوبًا إلى حدود الطرفين القديمة أي إلى طينة.

ثم أرجع الملك منتوحتب الأول قبيل وفاته حدود مملكته كسابق عهدها إلى قسم الثعبان أي القسم العاشر.

ونعلم أن ابن «تف إيبي» المدعو خيتي والذي كان معاصرًا لملك الشمال خيتي الرابع (مري كارع) قد حارب مع ملوك الشمال في القسم الحادي عشر ضد ملك الجنوب.

وبعد ذلك نجح ملوك طيبة في امتداد سلطانهم إلى شمال المنطقة الشمالية السابقة فاستولوا على أسيوط نفسها وهي في القسم الثالث عشر، وبذلك ينتهي تاريخ أمراء أسيوط فعلًا أيام خيتي بن (تف إيبي). وتكون منطقة القسم الثالث عشر هي أعلى ما بلغ إليه ملوك طيبة.

ونعلم بعد ذلك من نصوص حاتنوب الواقعة شمالي أسيوط أي في القسم الخامس عشر أن حروبا قامت في هذه الجهة أدت إلى استيلاء ملوك طيبة على هذه المنطقة.

***

وأخيرًا استطاع ملك طيبة المدعو «نب – حبت – رع» (منتو حتب الثاني) بعد ذلك من توحيد المملكة المصرية فابتدأ بذلك حوالي سنة **2070** قبل الميلاد عصرا جديدًا ممتازا في تاريخ مصر القديمة وهو المعروف بعصر وحدة مصر الثانية (عصر الدولة الوسطى).

وقد استمر توحيد المملكة المصرية في عهد خلفه «سعنخ كارع» (منتوحتب الثالث) ونب – تاوي – رع (منتوحتب الرابع) وباقي ملوك عصر التوحيد الثاني.

وبهذه المناسبة نقول إن عدد ملوك بيت طيبة (المعروفين بملوك الأسرة **11**) وترتيبهم كالآتي على حسب أحدث الآراء:

(**1**) انتف الأول (سهر تاوي) (**2**) انتف الثاني (واح عنخ) (**3**) انتف الثالث (نخت – نب – تب – نفر) (**4**) منتوحتب الأول (سعنخ ايب تاوي) (**5**) منتوحتب الثاني (نب – حبت – رع ويقرأ خطأ نب– خرو – رع) (**6**) منتوحتب الثالث (سعنخ كارع) (**7**) منتوحتب الرابع (نب – تاوي – رع).

ويلاحظ أن بعض هؤلاء الملوك كان معاصرًا لملوك البيت الإهناسي كما شرحنا.

الهيكسوس أصلهم وموطنهم الأول

اختلفت آراء المؤرخين في تحقيق أصل الهيكسوس وموطنهم وهم الذين غزوا مصر حوالي سنة **1730** قبل الميلاد؛ فبعض المؤرخين يؤكد أنهم الفريق الذي هاجر إلى مصر من سلالة آرية [27] كان موطنها بلاد ما بين النهرين [28] في وسط آسيا،

ثم هجروا إلى غربها حوالي سنة **2000** قبل الميلاد. والبعض الآخر يقول إن أصلهم من أعراب شبه جزيرة العرب [29] غير أن الأبحاث الحديثة قد أسفرت عن أنهم من أصل سامي [30] وموطنهم فلسطين [31] وأنهم من طائفة اليهود الذين ورد ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم.

---

(27) N. D. Mironov, Aryan Vestiges in the Near East, Acta Orientalia 11(1933) p. 150
50 ff.; Junkea, Gesehichte der Aegypter, 1933 p. 105
E. Brogelmaun, Noch cimmal : Die Hyksosfrage, Z. D. M. G. Bd. 90 (28) .(1963)
(29) King, Studies in Eastern History.
(30) R. Dussaud, Revue del' hiatoire des Religions 1934 p. 113 ff. Pahour Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegyptne, 1934 p. 8 ff.
(31) Pahour Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, 19.34 p. 8 ff.

وقد رجحت الرأي الأخير في ملخص رسالتي للدكتوراه [32] مستندا في ذلك إلى عوامل متعددة: منها ما أورده المؤرخ المصري القديم مانيتون من أن الهيكسوس «قوم شرقيون أتوا إلى مصر من الشرق وأنهم من بني إسرائيل بعد أن فند ما زعمه البعض من أنهم عرب» [33].

ثم إننا نستخرج من مجرد تسمية المصريين للهيكسوس ما يؤيد الرأي المتقدم؛ فقد لقب الهيكسوس بألقاب متعددة في النصوص المصرية القديمة. أطلق عليهم اسم «حقا خاسوت» أي حكام قبائل فلسطين (حرفيًا الأراضي الجبلية). وسموا «عامو» أي الآسيويون، وعلى الأخص الساميين. وكذلك أطلق عليهم «منتيو ستت» وهو اسم القبائل التي كانت تسكن الصحراء في شمال شرق مصر جنوب فلسطين. وأخيرًا سموا باسم «شاسو» الذي كان يطلق على سكان شمال شرق مصر ويقصد به قبائل جنوب فلسطين أعني الجزء الذي به قبائل جنوب فلسطين والذين به قبائل سامية. فجميع هذه الأسماء المختلفة التي أطلقها قدماء المصريين على الهيكسوس تدل دلالة واضحة على أنهم من أصل سام وأن لهم علاقة بفلسطين وهي الجهة التي كان يقطنها اليهود.

ومن الأشياء التي تساعدنا على تأييد التعليل السابق أن أغلب الأسماء التي جمعت عن ملوك الهيكسوس وأفرادهم في عهد وجودهم بمصر وهي التي لم يعرف أنها أسماء مصرية، ترجع إلى أصل سامي كنعاني.

---

(32) Pahour Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, 19.34 p. 8 ff.
(33) Waddell, Manetho, in Loeb classical Library, 19401) 77 ff.

فعلى سبيل المثال نرى ضمن أسماء الملوك «يعقوب إل» «وعنات إل» وكلاهما اسم سامي كنعاني كما هو ظاهر. ومن أسماء الأفراد «عابد» و«تحمن» وهي أيضًا سامية كنعانية. فهذا يدل على أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين.

غير أن بعض المؤرخين [34] يشير إلى أسماء بعض ملوك الهيكسوس التي لم يثبت للآن أنها سامية مثل سلاتيس وبنون وأباخنان. ولكننا لا نرى في ذلك شيئًا من الغرابة إذا لاحظنا أن مثل هذه الإغارات تتكون في غالب الأحايين من عناصر مختلفة. مع ملاحظة أن هذه الأسماء وردت إلينا عن طريق المؤرخ مانيتون باللغة اليونانية فقط. وقد نقلها بالطبع عن اللغة المصرية القديمة ويحتمل جدًا أن يكون قد أصابها التحريف فلا يمكن إذن الجزم بأنها ليست أسماء سامية.

وقد ظهرت في مصر على أثر غزوة الهيكسوس أسماء آلهة سامية كانت تعبد أصلًا في فلسطين وتلك الآلهة هي «عنات» و«بعل» فلو لم يكن الهيكسوس ساميين لما نقلوا معهم آلهتهم السامية إلى مصر.

***

ومن المسلم به أن الهيكسوس هم أول من أدخلوا استخدام الجواد والعربة إلى مصر ونحن إذا تتبعنا تسمية المصريين للجواد وللعربة وجدنا أنها أسماء سامية كنعانية. فالجواد كان يسمى «مسمت»، وهي كلمة

---

(34) **Junker, Die Aegypter p. 105.**

كنعانية سامية. وأطلق على العربة «مركبات» وهي كلمة أيضًا سامية كنعانية. ولا يجوز عقلًا أن نفرض استعمال الهيكسوس لغير لغتهم الأصلية في تسمية هذه الأشياء ما لم يقم الدليل على ضد هذا.

وقد أظهرت لنا الحفائر الأخيرة في فلسطين (35) عدة مقابر ترجع إلى عصر الهيكسوس ومؤرخة بأسماء ملوكهم فهذا دليل مادي على وجود صلة ما بين اليهود في فلسطين وما بين الهيكسوس في مصر. كذلك معروف أن العبرانيين كانوا يعبدون الحمار فإذا توصلنا إلى التحقق من عبادة الهيكسوس له استطعنا أن نقيم الدليل على أنهم من أصل سامي.

وفي سبيل ذلك نقول أنه وجدت في المقابر السالفة الذكر أربعة حمير مدفونة في مستوى أعلى من مستوى الأشخاص أنفسهم، وفي هذا وحده دليل على عبادة هذا الحيوان. إذ لو كان دفنها في المقابر بقصد القربان لوجدت في مستوى الأشخاص أو تحتهم. وليس فوق هذا المستوى كما قد لوحظ فعلًا من وجود جياد مدفونة كقرابين في مستوى أقل.

وما دمنا قد ذكرنا أن هذه المقابر مؤرخة بأسماء ملوك الهيكسوس فإننا نستنتج من ذلك أن عبادة الحمار كانت سائدة بين الهيكسوس يؤيد ذلك أيضًا أن أحد ملوك الهيكسوس كان يسمى «عاقن» أي «الحمار

(35) petrie Ancient Gaza, l, p. 3 ff.

القوي»[36] ومعروف ما جرى عليه الملوك من إدخال أسماء الآلهة وقد أقر الأستاذ **Bissing** في مقاله:

"das angebliche Welterich der Hyksos" in A chivder orient. For chung. Juni 1937 p. 325 ff. هذه الأسانيد صراحة فيما عدا هذا الدليل إذ يعترض بقوله أنه عثر على حمير وجياد مدفونة في مقابر أبي سنبل، وترجع إلى القرن الرابع والسادس الميلادي. وعلى هذا فدفن الحمير في مقابر فلسطين لا يدل على معاصرتها لملوك الهيكسوس، غير أنه فاته أن دليلنا قائم على ما هو ثابت من أن المقابر السالفة الذكر مؤرخة بأسماء ملوك الهيكسوس وهو دليل مادي حاسم. يضاف إلى هذا استنتاجنا في عبادة الهيكسوس للحمار قائم كذلك على طريقة دفنه وهذه الطريقة لم تتوافر إطلاقًا في مقابر أبي سنبل. هذا فضلًا عن أن العالم المذكور لم يعترض على الحلقات الأخرى التي تساندت في تأييد بعضها بعضًا.

يضاف إلى ما تقدم أنه على أثر غزوة الهيكسوس لمصر اختار الغزاة أحد آلهة المصريين وهو «ست» وساووه بآلهتهم، وكان مظهر هذه المساواة أن جعلوا الإله «ست» في لغتهم مخصصا لكلمة حمار «عا».

ثم هناك مسألة أخرى تؤيد أن الهيكسوس أصلهم سامي ومن فلسطين، وذلك أنه معروف أن القوم المسمون باسم «خبيرو» في خطابات تل العمارنة المحررة بالخط المعماري هم قوم ساميون استولوا

---

(36) pahor labib Die - Herrschaft der Huksos in Aeg., 1934 p. 25.

على فلسطين ومنها وسعوا سلطانهم وأنهم مقيمون في فلسطين إلى عهد أخناتون.

دلت أبحاثنا على أن كلمة «خبيرو» ترادف الكلمة المصرية القديمة «عبري» وهي عبري الحالية. وذلك لأن الخط المسماري لم يعرف حرف العين فكتب «خ» بدل «ع». أما إبدال الباء بـــ «پ» فمعروف في اللغة المصرية القديمة، فمثلًا كلمة كرباج تكتب بالمصرية الفرعونية اسبر أو اسپر مع أنهم استعمال معًا في عصر واحد في عهد وحدة مصر الثالثة (الدولة الحديثة).

وأخيرًا وجدت في إحدى مقابر بني حسن في أحد أركان الحجرة صورة تمثل قبيلة كنعانية مؤلفة من 37 شخصًا من رجال ونساء وأطفال وفدت من فلسطين إلى مصر في أيام الملك سنوسرت الثاني. وأول ما يلاحظ الدلالة على أنهم من أصل سامي. كما في أن تلك الصورة ذكرت نقوشها أنها كانت برئاسة «إبشا» الذي يحمل لقب «حقا خاسوت» وهذا اللقب هو الذي اختاره ملوك الهيكسوس فيما بعد لأنفسهم، بل أكثر من ذلك فإن هذا النعت قد أطلقه المصريون على قبائل هؤلاء الغزاة قبل غزوهم مصر وبعد طردهم منها.

فإذا كانت هذه القبيلة سامية الأصل فلسطينية الموطن وملقب رئيسها بلقب ملوك الهيكسوس فذلك مما يبعث على الاطمئنان إلى تأييد ما نقوله من أن الهيكسوس كانوا من ذلك الأصل ومن هذا الموطن.

وإلى جانب ما تقدم هناك عدة أسانيد أخرى أوردناها في ملخص رسالتنا للدكتوراه لا نرى محلًا لها في هذه المقالة. غير أننا نستطيع أن نضيف إلى تلك الأسانيد حجة جديدة لم ترد في رسالتنا تؤيد وجهة النظر السالفة من حيث أن الهيكسوس ساميو الأصل وهي أن هناك أثرًا من العاج على شكل أبي الهول يضرب بأظافره مصريا يمثل أحد ملوك الهيكسوس. وقد لاحظ العلّامة شارف في كتابه « **Handbuch der Archaeologie** » الذي ظهر في عام **1939** «إن ملامح هذا الملك الهيكسوسي واضحة الدلالة على أنه سامي الأصل».

***

عاصمة ملكهم ومدة حكمهم

يشوب عصر الهيكسوس ظلام قال عنه الأستاذ بريستد في كتابه عن تاريخ مصر ما ترجمته: "أن هؤلاء القوم لم يتركوا بعدهم في مصر إلا آثارًا يسيرة يصعب على الأثريين الاستدلال بها على شيء حتى على الوطن الأصلي لهؤلاء الغزاة ومدة حكمهم وكيفية سيادتهم».

على أنه بالرغم من هذا الظلام فقد تحدثنا عن أصل الهيكسوس وموطنهم الأول فأمكننا جلاء الغامض على قدر الجهد في هذه الناحية، ونستطيع أن نكشف اليوم من هذا العصر أيضًا عن ناحية عاصمة ملكهم ومدة حكمهم.

يحدثنا مانيتون «أن الهيكسوس اختاروا بلدة هوارس عاصمة لهم، وأن الباعث على تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب دينية» فعندما نقارن هذا بما حدثنا به الآثار نجد أنه في الوقت الذي كان يحكم فيه ملوك طيبة في الجنوب اتخذ الهيكسوس لهم في الشمال بلدة تدعى «حات وعرت» (هوارس) عاصمة لهم ونرى أنها في الأصل الهيروغليفي تكتب بصورة القدم وهذه الكتابة تعطينا فكرة عن سبب رواية مانيتون من أن تسميتها راجعة إلى أسباب دينية.

ويصح أن مانيتون عند ذكر هذا جالت بفكره قصة أوزريس. والمعروف أن أهم شيء في هذه القصة هو أن أجزاء جسم أوزريس قطعت بواسطة الإله ست ويصح أن يكون عضو من جسمه وهي القدم قد استقرت في هوارس (حات وعرت) وبذلك يكون معنى الاسم بلدة معبد قدم أوزوريس. ومن جهة أخرى نرى أن كلمة «وعرت» تعني «قدم» وهذا المعنى وصل إلينا كذلك من اللغة القبطية (المصرية) مما يجعلنا نقول أن التسمية من الوجهة الدينية جائزة.

وقد وصل إلينا اسم هذه العاصمة في عصور متأخرة عن عصر الهيكسوس كما في بردية ساليه الأولى مثلًا، مكتوبا في صورة أخرى غير صورة القدم وهي صورة رجلين أيضًا إلى جانب القدم. فمن الجائز جدًا أن المصريين بعد طرد الهيكسوس رسموا اسم المدينة بهذا الشكل للدلالة على خروج الهيكسوس منها، إذ أن معنى هذا الرسم الجديد هو مكان الهروب.

وذكر لنا نص الملكة حتشبسوت في معبد بالقرب من بلدة القوصية أنها أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كان البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كانوا في عاصمتهم بلدة حات وعرت (هوارس) في الدلتا. فنستوثق من هذا النص أن عاصمة الهيكسوس حات وعرت في الدلتا. ولا بد لنا من تحديد موقعها على وجه الدقة. لدينا لوحة حجرية لأحد الموظفين عاش في ادفو يخبرنا فيها: «أنه سافر شمالًا حتى بلدة حات وعرت (هوارس) وجنوبا إلى كوش». وهذا النص يرينا أن الموظف سافر إلى أقصى الشمال في الدلتا بالقياس إلى كوش الواقعة في أقصى الجنوب. ولدينا رسم لاسم المدينة يدل على أنها واقعة على الساحل فهي إذن تقع في شمال الدلتا بالقرب من الساحل.

بعد ذلك لدينا رسم آخر لاسم المدينة يدل على أن شطرا منها يطل على طريق صحراوي.

وأخيرًا بطريق مقارنتها مع بلدة أخرى تدعى «حات وعرت اهتتت، أي حات وعرت الغربية» نعلم أن الأولى (عاصمة الهيكسوس) لا بد أن تكون في الجهة الشرقية. فهي إذن تقع في الشمال الشرقي من الدلتا على الحدود الصحراوية وعلى البحر.

وقد اختلف العلماء كما هو معروف في تحديد موقع عاصمة الهيكسوس، غير أن **Gardiner** [37] توصل إلى نتيجة يمكن الاطمئنان

(37)A. Gardiner, Tania and Pi Ramesse, A Retractation, Jour. Eg. Aich XIX p. 122 @islamway.net.

إليها معتمدًا على عوامل متعددة. والعوامل التي بلغت به إليها يمكن تلخيصها فيما يلي:

(**أولًا**) المكتشفات التي قام بها الأثري **Montet** [38] في بلدة تانس.

(**ثانيًا**) ثم تحليل **Sethe** [39] للوحة حجرية مؤرخة في السنة الأربعمائة من تحديد عبادة الإله ست.

وعلى ذلك ما تقدم نقول إنه إلى عهد قريب كان الرأي السائد بين العلماء هو أن عبادة الإله «ست» لم تأت إلى شمال شرقي الدلتا إلا أيام حكم الهيكسوس. والحقيقة أنها أتت إلى هذه الجهة قبل ذلك بدليل النص الوارد في مقبرة «بحر نفر» الذي أثبته الأستاذ يونكن في مقالة عام **1939** كالآتي:

«كاهن الإله ست قائد المحاربين الذي في بلدته سزرت» والذي علق عليه بقوله «سزرت هذه هي المنطقة التي تقع شمال شرقي الدلتا»، فإذا كان تاريخ هذا النص هو الأسرة الرابعة فمعنى هذا أن عبادة الإله ست ترجع إلى الدولة القديمة أي إلى ما قبل دخول الهيكسوس في تلك الجهة.. وهذا يفسر لنا لماذا كان جد ملوك الرعامسة وبعض ملوك قدماء المصريين يعبدو الإله ست إله تلك الجهة.

---

(38) P. Montet, Les Nouvelles Fouilles de Tanis; P. Montet, Les Dieux de Ramses - aimé d'Amon a Tnuis (in Studies Presented to Cuiffith) p. 406 ff.

(39) Sethe, Der Dankstein mit dem Datum des Jahres 400 der Aera von Tania

(**ثالثًا**) تحليل نصوص مصرية أخرى ونصوص يونانية.

(**رابعًا**) مقارنة تبين أن الآلهة التي عبدت في «بر – رعمسيس» عاصمة الرعامسة هي بعينها الآلهة التي عبدت في «حات – وعرت» (هوارس) عاصمة الهيكسوس وعلى رأس هذه الآلهة الإله «ست».

***

وقد أسفرت هذه البحوث عن أن عاصمة الهيكسوس هي تلك البلدة التي اختارها فيما بعد الرعامسة لملكهم وسموها «بر – رعمسيس» وكانت تسمى لدى الهيكسوس «حات – وعرت" «هوارس» ثم أطلق عليها اليونان اسم «تانس» ثم أطلق عليها العرب الاسم الحالي «صان الحجر» الكائنة في شمال الدلتا الشرقي [(40)] حيث وجدت أخيرا آثار الملك شينشق. ونحن نلاحظ أن مدينة هوارس (حات – وعرت) التي اتخذها الهيكسوس عاصمة لهم، لم تنشأ من العدم وإنما قامت على أنقاض بلدة صغيرة كانت معروفة من قبل. وكانت الحكمة من جعلها قريبة من الحدود الشرقية للدلتا، هي أن تكون قريبة من بلادهم الأصلية ليسهل عليهم العودة إلى وطنهم في وقت الحاجة، أي بعبارة أخرى لأسباب جغرافية سياسية.

(40) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten, p. 20 ff.

مدة حكم الهيكسوس

اختلف العلماء، القدماء منهم والحديثون، في تقدير مدة حكم الهيكسوس في مصر؛ فيحدثنا مانيتون عن طريق أفريكانوس أن مدة حكمهم في مصر هي **929** سنة كما يحدثنا أيضًا عن طريق يوسيفوس أن مدة حكمهم في مصر لا تبلغ إلا **511** سنة وهناك فريق من العلماء يسمون أصحاب التوقيت المطول الذين يتبعون توقيت مانيتون مثل **petrie** يقدرون حكم الهيكسوس بمدة تقرب من خمسة قرون وربع قرن.

وهناك فريق آخر من العلماء يسمون أصحاب التوقيت المختصر مثل **Breadted** و **Meyer** يخالفون الرأي السابق ويعتقدون أن هذه المدة هي مائة سنة فقط. أما **Dubois Richard** [41] فيظن وهو من أصحاب التوقيت المختصر أيضًا أنها مائتا سنة.

أما نحن فنرى أن مدة حكم الهيكسوس تبلغ نحو قرن ونصف قرن أي من سنة **1730** ق. م إلى سنة **1580** ق. م [42] وقد توصلنا إلى هذه النتيجة مما يأتي:

– من المستحيل الأخذ بفكرة التوقيت المطول لأنها تتعارض مع الآثار المعاصرة ومع التاريخ المقارن والتاريخ الفلكي، وعلى هذا الأساس فإن المدة التي وصلتنا عن طريق مانيتون وعن أصحاب التوقيت المطول

---

(41) Dubois - Richard, Essai sur les Gouvernments de l’Egypte, Le Caire 1941, b. 60.

(42) Pahor Labib, opp. cit p. 22.

مبالغ فيها كل المبالغة لأن كل الفترة التي ما بين آخر الأسرة الثانية عشرة وأول الأسرة الثامنة عشرة لا تتعدى مائتي سنة وسبع سنوات (من **1787** ق. م إلى **1580** ق.م).

وأما نظرية بريستد، وماير.. في أن مدة حكم الهيكسوس هي مائة سنة فقط فخطأ. ذلك لأن بردية الملوك بمتحف تورين تذكر لنا أن مجموع مدة حكم ستة ملوك من الهيكسوس هو مائة وثماني سنوات [43] وهؤلاء الستة هم المعروفون بملوك الأسرة الخامسة عشرة أي أن مدة حكم أول أسرة هيكسوسية بلغ مائة وثماني سنوات فتكون أسرة واحدة من الهيكسوس حكمت وحدها أكثر من المدة التي قدرها بريستد وغيره من العلماء، ولذلك لا يمكننا الأخذ بهذه النظرية.

وكذلك نرى أن قول **Dubois Richald** مبالغ فيه أيضًا، ذلك لأنه لدينا أهم مستند في هذا الموضوع يساعدنا على تحديد مبدأ دخول الهيكسوس مصر وهو لوحة حجرية كبيرة وجدت في مدينة تانيس وهي من عصر الملك رمسيس الثاني، وهذه اللوحة التاريخية أقامها رمسيس الثاني تخليدا وتمجيدا لذكرى والده سيتي ولجده الأكبر المدعو أيضًا سيتي وتجديدا لعبادة الإله ست. وتتحدث هذه اللوحة عن ملك اسمه **Nubtj** وأوردت له اسمًا ثانيًا وهو «ست» القوي وأرخت هذه اللوحة بيوم **4** مسرى من السنة الأربعمائة من حكم «نوبتي» ست القوي ونعرف أن «نوبتي» هذا الاسم هو اسم الإله «ست» وهو مشتق

(43) Pahor Labib, op. cit., p. 22.

من المدينة التي عبد فيها هذا الإله. إذا هذه اللوحة التاريخية تتحدث (أولًا) عن عصر يرجع إلى ما قبل سنة **400** من تاريخ إقامة هذه اللوحة. و(ثانيًا) تتحدث لوحة الأربعمائة سنة عن تمجيد وتخليد ذكرى والد الملك رمسيس الثاني المدعو سيتي والمعروف بالملك سيتي الأول.

وتتحدث كذلك عن أحد أجداد رمسيس الثاني وهو جده الأكبر المدعو سيتي أيضًا. وكانت وظيفته «رئيس فرقة الأقواس» تحت حكم الملك حور محب أي حوالي سنة **1330** ق. م ومعنى ذلك أن كلا من والد رمسيس الثاني وجده تسمى باسم الإله ست لأن معنى كلمة سيتي «المنتسب إلى الإله ست» لهذا نجد أنه ليس غريبًا أن تتحدث عن لوحة خاصة بتجديد (وليس تأسيس كما يزعم بعض المؤرخين) عبادة الإله ست في شرق الدلتا لأن عبادته وجدت قبل ذلك ولأننا نعلم أن الآلهة الذين عبدوا في عصر الهيكسوس في بلدة تانيس هم نفس الآلهة الذين عبدوا في هذه البلدة في عصر الرعامسة وعلى رأسهم الإله ست. وذلك عرفنا أن عاصمة الهيكسوس «هوارس» هي نفس عاصمة الرعامسة «بر – رمسيس» وكلاهما مكان تانيس أو "صان الحجر" الحالية.

والآن بعد أن عرفنا أن الجد المقصود بهذه اللوحة هو سيتي، وأنه معاصر للملك حور محب فلنضف الأربعمائة سنة الواردة في هذه اللوحة من عصر هذا الجد الذي كان معاصرًا للملك حور محب إلى السنة التي تولى فيها حور محب العرش وهي سنة **1330** ق. م. فينتج لنا سنة **1730** ق. م. وهي سنة تجديد عبادة الإله ست ومبدأ دخول

الهيكسوس مصر لأن عبادة الإله ست جددت في أول عهد الهيكسوس عند ما جدد بناء العاصمة تانيس (هوارس).

والآن بعد أن عرفنا أن سنة دخول الهيكسوس مصر هي سنة **1730** ق. م. وأن أول حكم الأسرة الثامنة عشرة هو سنة **1580** ق. م. وهي سنة طرد الهيكسوس نهائيًا من مصر نستطيع أن نؤكد أن مدة حكم الهيكسوس هي مائة وخمسون سنة.

مدى توغل الهيكسوس في مصر

يحدثنا المؤرخ مانيتون أن «الهيكسوس استولوا على مصر بسهولة، وبغير حرب لأن أهل مصر كانوا في ثورة وهياج» وكلام مانيتون صحيح تؤيده مقارنة الآثار، إذ أننا نرى أنه ابتداء من منتصف الأسرة الثالثة عشرة (أي حوالي سنة **1757** ق. م) عمَّت الفوضى البلاد وبدأ الضعف يدب في صميم الدولة.

فبردية **Sallier 1** (وهي محفوظة في المتحف البريطاني وتاريخها يرجع إلى عصر الملك منفتاح ومحتوياته ترجع رغم ذلك إلى عصر الهيكسوس) تورد الجملة الآتية:

«حدث أنه كان في أرض مصر خطر أو وباء ولم يكن هناك سيد ما ملكًا بينهم».

فيتضح لنا من هذا النص التاريخي القديم إن مصر كانت في حالة فوضى وأن المصريين عجزوا عن إقامة ملك منهم مما سهل فيما بعد على الهيكسوس الاستيلاء على مصر حوالي سنة **1730** ق. م.

وقد جاء أن أحوال مصر السيئة مؤاتية للغزاة في وقت كان الضغط عليهم في بلادهم يزداد شدة ويدعو إلى هجرتهم نتيجة لإغارات حلت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وكان مردها إلى حركة اندفاع الشعوب الهندية الأوروبية (الآرية) في آسيا وهجرتها ولا سيما وقد دخلوا مصر بخيلهم وعرباتهم وغير ذلك من الفنون الحربية التي يجهلها المصريون فتفوق الهيكسوس من الوجهة الحربية سهل لهم الاستيلاء على المدن والقرى فاستولى الغزاة على ممفيس برغم موقعها الحربي المنيع. ونعلم ذلك من نص مكتوب بالهيراطيقي على لوحة معروفة بلوحة كارنارفون.

وعلى لوحة كارنارفون هذه نص آخر يؤيد بردية ساليبه السابقة الذكر، وفيه أن «ملكًا من الجنوب من طيبة يدعى كامس جمع قواده وخاطبهم قائلًا: «أريد أن أعرف ما هي قوتي إذا كان هناك أمير في بلدة حات وعرت (عاصمة الهيكسوس) وأمير آخر في بلدة كوش وأنا جالس مع أسيوي ونوبي [44] كل واحد منهما يملك نصيبه في أرض مصر

(44) دليل على أن السودان فصلت عن مصر.

ويشاركني الأرض أنا لم أعطه الفرصة أن يصل حتى ممفيس ولكن أنظر الآن فقد تم استيلاؤه على الأشمونين» [45].

فمن هذه النصوص نخرج بأن الهيكسوس توغلوا في الدلتا ثم استولوا على ممفيس ثم وصلوا الديار المصرية إلى بلدة الأشمونين.

وفي رد القواد السابقي الذكر على الملك كامس، وهو رد نجده أيضًا على لوحة كارنارفون نجد أن هؤلاء القواد ردوا على الملك قائلين: «ولو أن الهيكسوس وصلوا إلى بلدة القوصية (الواقعة بالقرب من ديروط) وأخرجوا ألسنتهم دفعة واحدة سنكون في هدوء لأننا نملك مصرنا ولأن (الفنتين) قوية والجزء الأوسط من مصر في حيازتنا حتى القوصية وعلاوة على ذلك تحرث لنا أحسن أراضيهم ومواشينا ما زالت في الدلتا فالغلال ترسل إلى خنازيرنا وكذلك لم يستولوا على مواشينا»

فمن هذا النص نرى أنه يمكننا تعيين الجهة التي وصل إليها الهيكسوس في مصر، وهي جهة القوصية، بل يرينا هذا النص كذلك أن الهيكسوس في الدلتالم يترعوا ملكية الأراضي التي كان يملكها فيها أهل الصعيد. ومع ذلك فهناك طائفة من العلماء أمثال بتري وأدوارد ماير ويونكر تظن أن الهيكسوس توغلوا في الأراضي المصرية إلى أبعد من ذلك. ويستندون في رأيهم هذا إلى قطعتين من الحجر وجدتا في جبلين (بالأقصر) عليهما أسماء الملك خيان [46] والملك أبوفيس.

---

(45) Pahor Labib, Die Herrschaft der Hyksos, p. 17 ff.

(46) هو المعروف عادة بأنه أعظم ملوك الهيكسوس لأن معظم آثاره وجدت ليس في مصر فحسب بل في جزيرة كريت وفي فلسطين وبغداد، فمن انتشار آثار الملك خيان بهذه الكيفية استنتج

ولكننا لا نعد هذين الحجرين دليلًا كافيا على صحة ما تذهب إليه هذه الطائفة من العلماء، وذلك لأننا نلاحظ أن الملوك الذين أتوا في العصور المتأخرة عن عصر الهيكسوس أخذوا آثار الهيكسوس ونقلوها من مكان إلى آخر. فمثلًا: إن جاردنر وجد إناءً من الجرانيت للملك ما أوسر رع أبو فيس في مقبرة الملك أمنحتب الأول في طيبة.

إذن فلنمضي في تأييد وجهة نظرنا ولنورد نصًا آخر يؤيد نص لوحة كارنارفون وهو نص الملكة حتشبسوت في معبد **Speos Artemidious** بالقرب من القوصية فقد جاء فيه أن الملكة أصلحت معبد حاتحور وجددته وقد كان في جهة القوصية وكذلك المعابد الأخرى التي هدمها الهيكسوس حتى بلدة القوصية. وهو يحملنا على الظن أن معبد بلدة القوصية هو آخر معبد وصل إليه تخريب الهيكسوس. والنص بالحرف يقول: «لقد أصلحت التلف وأكملت النقص بعدما كانت البلاد تئن تحت حكم الهيكسوس الذين كنوا في عاصمتهم بلدة هوارس (حات وعرت) في الدلتا». فهذان النصان يؤيدان أن الهيكسوس وصلوا فقط إلى بلدة القوصية.

ثم أننا نجد تعزيزا لهذا الرأي في إدارة الحكومة في الأسرة الثامنة عشرة أي بعد طرد الهيكسوس مباشرة؛ فالمنطقة من بلدة الفنتين إلى ما

بعض العلماء ومن بينهم ماير وبريستد أن إمبراطورية الهيكسوس كانت ضخمة ممتدة من الفرات إلى الشلال الأول. والبعض قال إن ملك خيان لم يشمل جميع هذه الأرجاء وإنما امتد نفوذه إليها، والحق أن لا هذا ولا ذاك.

بعد أسيوط بقليل أي إلى ما يقرب من القوصية كانت من اختصاص أحد الوزراء، ثم من القوصية إلى أعلى الدلتا كانت من اختصاص وزير آخر.

فالرأي أن المنطقة من الشمال إلى القوصية هي المنطقة التي استولى عليها الهيكسوس لا سيما وإننا نعلم أنه كان بين المنطقتين حدود محصنة ترجع إلى ما قبل عصر الهيكسوس فوقف عندها تقدمهم في أغلب الظن. ونجد هذا التقسيم يستمر إلى ما بعد عصر الهيكسوس فقد استمر إلى عصر الملك بعنخي مما يدلنا على أن هذا التقسيم كان مهما وأن هذه الحصون يصعب اقتحامها.

ومن ظريف ما يروى في هذا الصدد أن اسم أسيوط بالمصرية القديمة معناه «الحارس» وهذا مما يؤيد وجهة نظرنا ويرينا كيف تمتزج السياسة بالدين.

وهناك سبب آخر يؤيد القول بأن الهيكسوس لم يستولوا على مصر بأجمعها ذلك أننا نعلم تمام العلم أن هناك ملوكا وطنيين جعلوا مقرهم في طيبة وطردوا الهيكسوس من مصر كما سنرى فيما بعد.

ومن الطبيعي أن طيبة كان لها ملوكها المصريون طيلة عهد الهيكسوس فكان هناك في الواقع فريقان: فريق الشمال وهم الهيكسوس الذين حكموا حتى بلدة القوصية، وفريق آخر مصري حكم من الفنتين إلى القوصية، وبذلك تكون غزوة الهيكسوس قد اقتصرت على الدلتا حتى بلدة القوصية.

مطاردة الهيكسوس في مصر

جازت هذه المرحلة أدوارا كثيرة أهمها: ما وصل إلينا من عهد الملك «سقنن رع» الملقب «قن» أحد ملوك الأسرة السابعة عشرة. والدور الذي لعبه ذلك الملك في مطاردة الهيكسوس مذكور في بردية ساليية بالمتحف البريطاني، ثم ما ورد في لوحة معروفة بلوحة كارنارفون بالمتحف المصري، وهي لوحة خشب كتب عليها بالهيراطيقية ملخص الحرب التي دارت بين الملك كامس والهيكسوس، ثم النص الذي يحدثنا فيه القائد أحمس بن أبانا عما قام به الملك أحمس الأول في سبيل طرد الهيكسوس من مصر.

أما المصدر الأول فيذكر أن الملك «سقنن رع» كان ملكًا على إقليم طيبة وكان يعاصره ملك من الهيكسوس يدعى «أبو فيس»، وقد جمع أبوفيس في أحد الأيام كبار قومه وتحدث معهم وربما كان الحديث حول تدبير مؤامرة لاغتيال الملك «سقنن رع» وها هو ذا جزء من هذه النصوص تدلنا ترجمته على ما ذهبنا إليه: «انقضى زمن طويل بعد ذلك، فأرسل الملك أبو فيس إلى الملك «سقنن رع» بالعاصمة الجنوبية (طيبة) رسالة ولما وصل رسل الملك أبوفيس إلى طيبة أحضروا إلى ملكها، فسأل أحد رسل الملك أبوفيس هذا السؤال: لماذا جئت إلى العاصمة الجنوبية ولأي سبب سافرت مع زملائك طوال هذه المدة؟

فأجاب أن الملك أبوفيس أرسلنا إليكم لنخبركم بأن دب البحر الساكن في بحيرة طيبة يمنع جلالته من النوم نهارًا وليلا وصياحه يزعج

أذني الملك». «حزن الملك سقنن رع وتألم ولم يرد الجواب. ثم عاد رسول الملك أبوفيس إلى صيده» ومن سياق الكلام نفسه نعلم أنه على أثر ذهاب رسول أبوفيس إلى سيده دعا سقنن رع قواده ورؤساء حكومته وأخبرهم برسالة الملك أبوفيس فسكتوا جميعًا ولم ينطقوا بكلمة واحدة (وهنا سقط الأصل) ولم تكمل القصة التي كانت تحوي كثيرًا من المعلومات التاريخية.

فمن الجائز أن يكون رسل الملك أبوفيس عبارة عن أفراد عصابة أرسلها الملك لاغتيال حياة «سقنن رع» ولما خابوا في مهمتهم عادوا بعد أن اختلقوا الحيل ولفقوا الأسباب التي من أجلها أرسلهم ملكهم. كذلك نعلم أن جثة هذا الملك «سقنن رع» وجدت في معبد الدير البحري وفيها آثار جروح نتيجة ضربات مميتة فهل معنى ذلك أن هناك مؤامرة دبرت لاغتيال هذا الملك العظيم؟ أم أنه سقط صريعا في ميدان القتال ثم أنقذ أحد أتباعه جثته من العدو؟

أرجح شخصيا الرأي الثاني، وذلك لأن آثار الجهاد واضحة في جثة هذا الملك وهذا ما يحملنا على الظن أنه ثار على الغزاة وأوقد الحمية في صدور شعبه، فقاموا قومة رجل واحد ليطردوا الهيكسوس من مصر. ويؤيد ذلك أن خليفة هذا الملك وهو ابنه كامس واصل الحرب ضد الهيكسوس.

أما المصدر الثاني وهو لوحة كارنافون فقد عرفنا تفاصيلها عندما تكلمنا عما وقع تحت حكم الهيكسوس من المناطق المصرية.

والمصدر الثالث عبارة عن نص القائد البحري أحمس بن أبانا. اسمه أبانا نسبة إلى أمه وقد كان ذلك شائعا عند قدماء المصريين مما يبين لنا مركز المرأة قديمًا. أما اسم والده فقد كان «بابا» وقد كان بابا والد القائد أحمس هذا معاصرًا للملك سقنن رع.

وقد ظهر هذا القائد في المرحلة الأخيرة من مطاردة الهيكسوس وعاش في بلدة الكاب. وقد بدأ حياته العملية أيام الملك أحمس الأول الذي عينه قائدا في إحدى السفن والذي يهمنا في نص هذا القائد (47) من الوجهة التاريخية في موضوع مطرد الهيكسوس هو ما يأتي:

«كنت أتبع الملك ماشيًا عندما ركب عجلته وعندما حاصر الملك بلدة حات وعرت (هوارس) وقد أظهرت شجاعة على قدمي ماشيًا أمام جلالته وبعد ذلك رقاني (جلالته) إلى السفينة المسماة «خع ام من نفر» ثم حارب الملك على مياه قناة پاجودكو الواقعة جهة حات وعرت (هوارس) ثم حاربت وأحضرت يدًا وبلغت هذه المسألة إلى كاتب سر الملك فأنعم علي بعد ذلك بذهب الشجاعة، وحارب الملك بعد ذلك في أجزاء مصر الواقعة في جنوبي هذه البلدة»

وقد اختلف العلماء فيما هو المقصود من البلدة التي حارب الملك جنوبيها فبعضهم يقول إن المقصود بها «بلدة هوارس» المذكورة في النص، والبعض الآخر يقول إنها بلدة الكاب حيث مقبرة هذا الموظف الذي كتب لنا عن تاريخ حياته. وأرجح أنا شخصيا الرأي الثاني لأنه

---

(47) K. Sethe, Urkunden der 18. Dynastie

ليس من المعقول أن تثور مصر كلها في هذا الوقت العصيب ضد الملك أحمس الأول. فالمقصود إذن هي مدينة الكاب، ويستنتج من ذلك أيضًا استمرار إغارة النوبيين على مصر.

وقد جاء في نفس نصوص هذه المقبرة ذكر تلك الإغارة التي كانت في عهد الملك الذي أحمس وهو كامس. «وبعد ذلك استولى الملك على مدينة حات وعرت (هوارس) وكنت قد أحضرت من هناك غنيمة رجل واحد وثلاث نسوة أي أربع رؤوس (أسرى)».

ثم يستمر النص فيقول: «وقد أعطاهم جلالته إياهم كعبيد» «ثم حاصر الملك بلدة شاروهن مدة ثلاث سنوات واستولى جلالته عليها».

فمن هذا النص نستنتج محاضرة الملك بلدة "هوراس" عاصمة الهيكسوس ثم استيلاءه عليها وبعد ذلك مطاردة الهيكسوس في عقر دارهم ومحاضرته بلدة شاروهين بعد أن تعقبهم الملك إليها ثم استولى عليها بعد محاصرتها ثلاثة أعوام. وهذا مهم من الوجهة التاريخية إذ يبين لنا أن أحمس الأول طرد الهيكسوس من مصر بعد أن استولى على عاصمتهم ثم طاردهم إلى جنوب فلسطين.

وبذلك نختم الجزء التاريخي الذي يهمنا في مطاردة الهيكسوس من نص القائد أحمس ابن أبانا.

وبحكم الملك أحمس الأول ينتهي حكم الهيكسوس ويعتلي ملوك طيبة ثانية عرش مصر ويبدأ تاريخ عصر هام تحقق فيه توحيد مصر من

جديد وهو ما نسميه بـــ «عصر الوحدة الثالثة» و«المسمى بعصر الدولة الحديثة» طبقا لما هو شائع. وذلك لأن على يدي أحمس الأول تمت مطاردة الهيكسوس من البلاد المصرية وعلى يديه كذلك رجعت إلى مصر الوحدة القومية لأن حرب مطاردة الهيكسوس لم تكن حرب استقلال فقط بل هي أيضًا فرصة اغتنمها ملوك طيبة لكي يسيطروا على القطر المصري بأجمعه. وقد تم لهم ذلك على يد عميدهم الملك أحمس الأول. وهنا نرى ظهور نفوذ طيبة السياسي للمرة الثانية بعد أن ظهر أولًا في أيام الدولة الوسطى ولم يكن أبرز الأشياء في هذا العهد انتصار فراعنة على آخرين وإنما كان مطاردهم شعبا أجنبيا.

وبالرغم من الأضرار التي عادت على مصر من حكم الهيكسوس من تفكك في الإدارة وتصدع الوحدة إلا أن المصريين جنوا من عصر هؤلاء المغيرين الفوائد الآتية:

عند مطاردة الهيكسوس أخذت مصر تتطلع إلى البلاد الآسيوية المجاورة لها ولا سيما فلسطين وسوريا وأصبحت جزءا من مصر أي نظرت إليها كأجزاء لا يمكن الاستغناء عنها وبذلك أصبحت مصر أمة غري منعزلة عن باقي العالم وأصبح لها مقام دولي عام حدد في مراسلات أو معاهدات دولية. كذلك كان لغزو الهيكسوس لمصر مزايا لا يمكن إنكارها ظهرت آثارها فيما بعد ظهورًا واضحًا بما أثمره من رخاء. فمثلًا استفاد المصريون أشياء كثيرة أثرت في الصناعة المصرية ومنها صناعة العربات التي كانت سببًا في تعلم المصري هذه الصناعة وترقيتها وتشغيل

الأيدي العاملة من المصريين والسودانيين فيها فيما بعد وما يتبع ذلك من عمل الجلود وغيره للعربة وللجياد وهناك كذلك صناعة أخرى هي صناعة الأسلحة ولا سيما الخناجر فبذلك زادت أعمال الشعب المصري في هاتين الصناعتين.

ومن مميزات غزو الهيكسوس لمصر إنشاء جيش نظامي دائم مجهز بالأسلحة ومزود لأول مرة في تاريخ مصر القديم بالجياد والعربات الحربية وذلك لأن الهيكسوس هم أول من أدخل الجواد والعربة في مصر، وزيادة على ذلك استفاد المصريون أثناء وجود الهيكسوس في مصر استعمال الجواد والعربة في الحروب فتعلموا من الهيكسوس الفنون الحربية وطرق الكفاح المختلفة فثاروا في وجه الغزاة كما تقدم ثورة موفقة، وعلى ذلك كان حكم الهيكسوس في مصر من العوامل التي قوت في الشعب المصري لأول مرة في تاريخه روح الكفاح؛ طلب الحرية فنالها ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الغزو والحرب فتولدت في الشعب المصري روح الثورة على الاستعمار، ومن الطبيعي أن يتبع ذلك كثرة الوظائف الحربية والمدنية أي وجود أياد عاملة في مصر وفي خارجها، وقد استنتجنا ذلك من الألقاب التي كان أكثرها غير معروف قبل عصر الهيكسوس.

وكان المصريون يفخرون بوظائفهم الحربية، وقد أشارت إلى ذلك نقوشهم وازداد تشجيع الملوك للقواد الحربيين فأعطوا الأراضي ومنحوا النياشين، بل فرض أغلب ملوك عصر الوحدة الثالثة على أولياء عهودهم

دراسة الفنون الحربية في مدرسة أو كلية أنشئت خصيصا لذلك في منف[48] بل أكثر من ذلك فقد فرض على أولياء العهود أن يتولوا إدارة مصنع بناء السفن والأسطول (دار الصنعة) الذي أنشئ في هذا العصر على مقربة من منف. ونذكر هنا أن ولي العهد أمنحتب بن الملك تحتمس الثالث، وهو الذي عرف فيما بعد باسم "أمنحتب الثاني" كان يشرف على إدارة مصنع بناء السفن والأسطول[49].

وكذلك كان من نتيجة غزو الهيكسوس مصر تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف تدفقت الخيرات منها على مصر كما تدفقت الأموال على بيت فرعون فعم الرخاء وازدادت موارد مصر كثيرًا مما أدى إلى تقدم المدنية المصرية.

وكان من الفوائد والمميزات الكثيرة التي عادت على مصر بالخير أيضًا بعد غزوة الهيكسوس ظهور شبه انقلاب في السياسة وفي الحالة الاجتماعية حتى أدمجت في اللغة المصرية نفسها كلمات كنعانية كثيرة.

---

(48) Helck, Der Einflnss der Militarfuhrer

(49) Glanville, Aeg. Zeitschrift, 66.

الملك إيخ ـ إن ـ آتون [50]

الملك إيخ – إن – آتون، أو كما يسميه كثير من كتاب التاريخ المصري القديم، إخناتون على سبيل التخفيف هو ابن الملك أمنحتب الثالث من زوجته «تي» التي اختارها الملك من طبقة الشعب المصري لا الأسيوي، كما زعم بعض المؤرخين، فهي كريمة الأبوين المصريين يويا وتويا.

وأهم دافع حفزني للبحث في هذا الموضوع هو دراسة نظام الحكم في عصر هذا الملك وسابقيه من ملوك عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة) وبيان مبلغ سلطة هؤلاء الملوك: أكانت استبدادية مطلقة حقًا كما يقول المؤرخون أمثال بريستد وماير ويونكر وموريه ويتري وسائر الباحثين؟، أم أن الرأي بعكس ذلك كما انتهت إليه بحوثي وعلى ما سأعرضه الآن؟.

كان نظام الحكم في مصر القديمة يتوقف على مقدار ما تتصف به سلطة الملك من القوة والضعف. وإذا عرفنا أن الحكومة والملك شيء واحد، وأن الحكومة قديمًا كانت تتمثل في شخص واحد هو الملك

---

(50) زوجته الملكة نفرتيتي صاحبة التمثال الجميل المشهور بمتحف برلين، ونفرتيتي معناه باللغة القديمة «الجميلة أتت».

وتتجمع في شخصه مختلف السلطات، أدركنا أن الحكومات كانت تتغير حسب سلطة الملك قوة وضعفا فتصبح مطلقة أو مقيدة بقوة أخرى، وهذه الظاهرة لم تقتصر على عصور المصريين، بل نجد ما يشابهها في فرسنا في زمن الملك لويس الرابع عشر حينما ابتدع نظرية «الحكومة أنا، وأنا الحكومة».

والرأي السائد حتى الآن بين العلماء والباحثين أن سلطة الملوك في الفترة بين أحمس الأول وإيخ – إن – آتون كانت استبدادية مطلقة وأن نفوذ الأمراء زال تماما تبعًا لانضوائهم في خدمة الملك كمديرين لمقطاعاتهم.

ولكن عند التعمق في دراسة هذا العصر وبحثه يجد الفاحص المدقق أن هناك مشكلة دقيقة تواجه المؤرخ وهي هل سلطة الملك إيخ – إن – آتون ومن سبقه من ملوك عصر الوحدة الثالثة استبدادية مطلقة، أم كانت سلطتهم يضعفها وجود نظام إقطاعي خاص؟

وبعبارة أخرى هل كان الملك إيخ – ان – آتون ومن سبقه من ملوك عصر الوحدة الثالثة منذ أيام تحتمس الثالث في قوتهم وسلطانهم كما يظهرهم التاريخ هم الواضعون لأساس النظام الإقطاعي الذي ظهر جليًا في عهد الملوك الذين تولوا الحكم بعد تحتمس الثالث بحيث أنه عندما تولى إيخ – إن – آتون الملك. ورث النظام الإقطاعي الخاص الذي كان على أيام سابقيه، والذي قيد من سلطتهم، خلافًا لما كان معروفًا عنهم من قبل؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نرجع قليلًا إلى الوراء، فنجد أنه يمكننا القول أن الملوك المصريين القدماء لم تبلغ سلطتهم من القوة مثل ما بلغت في عهد الملك أحمس الأول ومن تلاه من الملوك حتى عهد تحتمس الثالث (لأنهم أصحاب الفضل في تخليص مصر من أيدي الغزاة فأمكنهم أن يركزوا في أيديهم كل السلطات المختلفة في مقر عاصمتهم طيبة). ولكن من سوء الحظ كان الملك أحمس ومن خلفه من الملوك على عرش مصر يمنح الآلهة المتعددة في مختلف الأقاليم (أمثال آمون في طيبة ورع في عين شمس وبتاح في منف وهكذا) أراض يجعل ملكيتها باسم الآلهة المختلفة ويلحق بها امتيازات كان الملوك يعتبرونها في بادئ الأمر اعترافا بجميل هذه الآلهة على ما نالوه من نصر في حروبهم أو بعثاتهم.

وهنا نرى شيئين خطيرين، أولًا: أن الملوك وهبوا أراض واسعة للآلهة في مختلف الأقاليم. ثانيًا: أن الملوك أعفوا هذه الأراضي من الضرائب بل وأضافوا إليها امتيازات أخرى.

***

وقد زادت هذه الأراضي زيادة غير منتظرة ولم يصبح منحها اعترافا بالجميل للآلهة، بل أصبح دليلًا على الضعف والتودد وانعكست الآية في عهد الملوك اللاحقين لعصر تحتمس الثالث، فلم يعد الكهنة خاضعين لسلطان الملك كما كانوا في أول الأمر بل شعروا بنفوذهم وسلطانهم الذي أخذ في الازدياد في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الملوك يضعف ويتقلص.

فما بوادر هذا الضعف من جانب الملوك وما هي مظاهر هذا الجاه وتلك السطوة من جانب رجال الدين؟

(**أولًا**): لم تصبح إدارة المعابد بعد خاضعة لإدارة الحكومة المركزية كما كانت من قبل، بل استقلت عنها تمامًا. وبالتالي أصبح موظفو هذه المعابد ومديروها من الموظفين الدينيين تحت إمرة رئيس الكهنة في كل معبد. وكانت إدارة هذه المعابد وأملاكها تتناول كثيرًا من النواحي الزراعية والصناعية والفنية والاقتصادية والعلمية.

فمن الناحية الزراعية كان عدد كبير من العمال يعمل في زراعة الأرض والري والحصار وتربية المواشي وشق الترع وغرس الحقول والحدائق بالفاكهة والأعناب.

ومن الناحية الصناعية كان عدد كبير يعمل في مستخرجات الماشية ومستخرجات الكروم وغيرها مثل عمال النسيج وعمال النبيذ.

ومن الناحية الفنية كان عدد كبير يعمل في بناء المعابد وملحقاتها وهندستها وفي النقش والنحت والرسم.

ومن الناحية العلمية، كان عدد كبير أيضًا يعمل في علوم الدين وعلوم الفلك وفي الطب وشؤون الكتابة والقضاء والهندسة والكيمياء والرياضيات.

أضف إلى ذلك أن جمهورا عظيمًا لا يستهان بعدده من الرجال، كان يعمل في كل معبد من هذه المعابد وملحقاتها في أعمال تتصل

بالخبازة والحلاقة ومنهم الحلواني وصانع النعال والصائغ وحارق البخور وغالي الزيت وحامل المياه ومقدم القرابين. يضاف إلى هؤلاء أيضًا أنواع من الخدم كالحارس والبواب. أما فيما يختص بمدينة الأموات التابعة لكل رئيس كهنة فإدارتها معروف أمرها للجميع.

ولم يكتف رجال الدين برعاية شؤون الدين وإدارة معابدهم بل كانت لهم في كثير من الأحيان صلات وثيقة بكثير من الأعمال الحكومية أو بعض المهام الملكية، فكثيرًا ما كانوا يندبون لإدارتها أو للإشراف عليها. ولعل من أهم الأمثلة التي تؤيد ذلك ما يلاحظ على ألقاب الكاهن الأكبر «حابو سنب».

بل وأكثر من ذلك أصبح منصب رئيس لكهنة وراثيا، فكان الخلف يعقب السلف دون أن يقوم نزاع أو خلاف كالذي كان يقوم عادة لتوارث الملك في ذلك الحين. وأظهر مثل لدينا على هذا كبير كهنة منف الذي مثل سلالته على إحدى الجدران في أربعة صفوف في كل صف منها خمسة عشر كاهنا من أفراد أسرته، وظلوا جميعًا متربعين في منصب الرياسة الدينية في منف ما يقرب من ألف وثلاثمائة عام تقريبًا. وهناك قطعة أثرية أخرى بمتحف كوبنهاجن تمثل توارث كهنة عين شمس على هذا النسق.

أما كهنة آمون فقد نشر عنهم «لا فيفر» الكثير كما هو معروف للجميع. زد إلى ذلك أن سلطة الرئيس الديني لا تنتهي بوفاة الملك المعاصر له بل تستمر ولا تعتبر منتهية إلا بوفاة هذا الرئيس. وربما

ازدادت بما يصيبهم من ثراء على أيدي الملك اللاحق، وبما يصيبهم من امتيازات جديدة وهدايا جديدة بصرف النظر عما وهبه لهم أسلافه. فيكدسون بذلك الأحجار الثمينة والذهب وتتكاثر الأراضي والمواشي ويزداد عدد أتباع كل معبد. ولم يكتف الرؤساء الدينيون بكل ما نالوه من هذه الامتيازات بل أطلقوا على أنفسهم لقب أمير «حاتي عا» فتشبهوا بحكام المقاطعات في ألقابهم وفي نفوذهم.

(**ثانيًا**): بينا أن طبقات الكهنة أصبحت مستقلة عن السلطة المركزية، ولهذا الاستقلال مظاهر متعددة فمن الناحية السياسية تدرج الأمر برؤساء المعابد إلى أن أصبحوا في وقت واحد يجمعون بين منصبي «الرئيس الديني لجميع معابد آلهتهم في مصر العليا والسلفي» ومنصب «الوزير» وهو رئيس الدولة بعد الملك مباشرة أي أنه قد تطور نفوذ رجال الدين بالتدرج حتى أمكنهم الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية أو الجمع بين السياسة والدين.

ويحدثنا التاريخ أن «بتاح مس» كبير كهنة بتاح بمنف في عصر الملك أمنحتب الثالث جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة بتاح بمنف، كما أن «حابو سنب» كبير كهنة آمون في عصر الملكة «حتشبسوت» قد جمع أيضًا بين الوزارة ورئاسة كهنة آمون بطيبة.

فأصبح رؤساء المعابد بذلك يشتركون اشتراكا فعليًا في حكم البلاد مع الملك.

ومن الناحية الإدارية كان يقوم بإدارة هذه المعابد وأملاكها من ضياع ومصانع وغيرها رجال دينيون يخضعن مباشرة للرئيس الديني الأعلى للمعبد لا للسلطة المركزية. وكان اختصاص هذا الرئيس يتسع ويضيق تبعًا لمقدار انتشار عبادة الإله القائم بعبادته وخدمته.

ومن الناحية الاقتصادية كان معابدهم وما تمتلك من أرض وحيوان معفاة هي وباقي الموارد من الضرائب سنويًا، كما أن ميزانية هذه المعابد كانت منفصلة عن الميزانية العامة للدولة انفصالا تامًا، فكان لهذه المعابد بيوت للذهب، وبيوت للفضة خاصة، ومخازن غلال خاصة، ومراكب خاصة لجلب الدخل والخيرات من البلاد التابعة لهذه المعابد، غير بيوت الذهب والفضة ومخازن ومراكب الحكومة.

ومن الناحية الاجتماعية، دلتنا النقوش على أن رؤساء المعابد كان لهم المقام الأول والاعتبار الأعظم. كما أن المعابد كانت تعتبر في ذلك الوقت بمثابة معاهد ثقافية تشبه دور العلم أو الجامعات في وقتنا هذا، وكان الرؤساء الدينيون يعتبرون كعمداء لهذه المعابد.

ومن الناحية القضائية كانت تمثل رجال الدين في مختلف المحاكم.

أما وقد رأينا الآن ما انتهى إليه أمر هؤلاء الرؤساء الدينيين، الذين يحق لنا أن نسميهم الكهنة الأمراء، من سلطان مطلق في إدارة معابدهم وعلى الشؤون المتعلقة بالمالية والقضاء.

نخرج بنتيجة واحدة وهي أن نفوذ هؤلاء الكهنة الأمراء طغى على نفوذ الملك وتضاءلت هيبة الملك بجوار هيبتهم، فحق لنا أن نسمي هذه المعابد بدويلات داخل الدولة المصرية، وأن نسمي هؤلاء الرؤساء الدينيين «الكهنة الأمراء».

وكان طبيعيًا، وقد شبهنا هذه المعابد بدويلات، أن يكون لكل منها بوليس خاص لمراقبة جميع الأعمال والعمال ولحفظ الأمن.

وكذلك كن طبيعيًا أن يكون لكل منها جيش خاص يذود عنها ويدفع عنها اعتداءات المغيرين، فكان وجود هذه الجيوش مما يقوي من هيبة الرؤساء الدينيين ويضعف من هيبة الملك.

زد إلى ذلك أن رؤساء المعابد كانوا هم رؤساء الجيوش، في حين أن القاعدة أن الملك هو الرئيس الأعلى للجيش. أصبح الكاهن الأعلى لكل معبد، أو رئيس كل دويلة، يزاحم الملك سلطته وسلطانه على البلاد.

فليس غريبًا بعد كل رأيناه من مختلف المظاهر لازدياد سلطة الكهنة الأمراء، أن نحس بانكماش سلطان الملك وتضاؤل سلطته في هذه النواحي المتعددة التي سبق أن تكلمنا عليها.

وأخيرًا يجب أن نطرح السؤال الآتي: ما هي أركان النظام الإقطاعي وأهم خواصه وما مدى توافقها وانطباقها مع ما انتهى إليه حال

الأمة والدولة المصرية وكهنتها عندما ورث الملك إيخ –أن– آتون عرش مصر؟

إن خواص النظام الإقطاعي وأركانه تنحصر في أربعة أمور رئيسية:

(**أولًا**)ـ الإمارة: وقد رأينا أن الرئيس الديني انتهى الأمر به إلى لقب أمير

(**ثانيًا**)ـ التوارث: وقد أصبح منصب الرئيس الديني وراثيا يتوارثه أولاده ثم أحفاده دون نزاع أو خلاف.

(**ثالثًا**)ـ التعدد: وقد كان عدد هذه المعابد وممتلكاتها يتزايد للآلة الواحد في جهات مختلفة. فلما جاء إيخ – إن– آتون وجد عددها منتشرا في أجزاء مختلفة من أقاليم القطر المصري.

(**رابعًا**)ـ الانفصال عن السلطة المركزية: وقد بينا سابقًا أن هذه المعابد كانت منفصلة عن السلطة المركزية من جميع نواحي النشاط السياسي والإداري والمالي والقضائي والحربي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي.

***

من هذه الخواص مجتمعة ومما رأيناه من انطباقها وتوافقها على ما كانت عليه الأمة المصرية، وما وصلت إليه حال الكهنة حتى عهد الملك إيخ – إن – آتون يمكننا القول أن كلمة «نظام إقطاعي» تنطبق على هذه التركة التي ورثها الملك إيخ – إن – آتون مع فارق فني بسيط، وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الإقطاعي كان لأمراء المعابد بدلًا

من أمراء المقاطعات المدنيين وذلك النظام الجديد من النظام الإقطاعي في هذا العهد يمكن تسميته بالانجليزية **Temple Feudal System** وبالفرنسية **Feodatite de Temple Templfurstentum** والعربية "إقطاعيات المعابد" لأنه في هذا النظام الجديد حل المعبد وممتلكاته محل المقاطعة ومشتملاتها وحل الأمير الديني محل الأمير المدني.

والملاحظ أن هذه الظاهرة الجديدة ليست قاصرة على عهد الملك إيخ – إن – آتون فحسب، بل إننا نجد لها نظيرا في كثير من العهود الفرعونية الأخرى.

ولما جاء إيخ – إن – آتون إلى العرش أخيرًا وجد الحال كما بينا، وهو حال من النظام الإقطاعي الخاص، جعل الملك الشاب لا يستسيغه بل وينتهز الفرص للإيقاع بهؤلاء الأمراء الكهنة الذين أصبحوا خطرًا على ملكه، فشاء أن يتحرر من قيود هذا النظام الإقطاعي الذي ورثه عن أسلافه، فثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه حوالي سنة **1377** قبل الميلاد ليتخلص من أولئك الكهنة الأمراء ومن سلطانهم، بل ومن معبوداتهم وكثيرًا ما تلعب السياسة دورها تحت ستار من الدين.

منصب الوزير

في مصر الفرعونية

جرت عادة ملوك مصر الأقدمين على أن يلقوا عبء الإجراءات الحكومية من إدارية وقضائية ومالية وحربية على عاتق أكبر موظف في الدولة وهو الوزير، وكان يسمى باللغة المصرية القديمة «ثات».

وكان لمن يشغل منصب الوزير من الأهمية والسلطان قدر كبير، وذلك لأن الوزير كان هو رجل الدولة الأول الذي يلي الملك مباشرة في الأهمية والنفوذ والسلطان. ولأن الوزير كان بمثابة حلقة الاتصال بين الملك وبين الإدارات المختلفة، سواء في العاصمة أم في الأقاليم.

وبسبب هذه الأهمية التي كانت للوزير كان ينتخب من أعرق العائلات المخلصة للعرش المتفانية في ولائها وخدمتها له، بل كان يعين أحيانًا من أولياء العهد، أو أبناء الملك، أو أقارب الملك في بعض العصور، وفي عصور أخرى كانت وظيفة الوزير وراثية. وفي ظروف خاصة جمع بعض الوزراء بين منصب الوزير ومنصب رئاسة كهنة إله الدولة الرسمي.

وأقدم من ذكر من الوزراء وزير الملك مينا (نعرمر): الموحد الأول لمصر القديمة ومؤسس الدولة القديمة (عصر وحدة وادي النيل الأولى)

وقد جرت العادة في العصور الأولى من تاريخ الحضارة المصرية القديمة أن يكون وزير واحد للملك والدولة.

وبابتداء عصر الوحدة الثانية (الدولة الوسطى) نجد على الأرجح ظاهرة جديدة في تاريخ ملوك مصر الأقدمين، وهو أن اثنين من الوزراء يعاونان الملك في وقت واحد. ولكن نصوص هذا العصر لا ترينا تحديدًا للاختصاص، ولكن من الثابت أن الشؤون المصرية القديمة للمملكة الفرعونية قد زادت في هذا العصر نتيجة لازدياد الفتوح الأجنبية، مما يدل على أن الحاجة كانت ماسة لأكثر من وزير.

أما في عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة)، فقد وصلتنا نقوش ونصوص كثيرة تعطينا فكرة من مهام الوزير، فقد كان لمصر وزيران أحدهما للشمال، واختصاصه المنطقة التي تمتد من شمال أسيوط حتى البحر المتوسط، والآخر للجنوب، ومنطقته تمتد من جنوب أسيوط حتى حدود مصر الجنوبية. وكان مركز الأول عين شمس أو منف أو تانس (بررميس)، والثاني كان مركزه طيبة.

وأهم المعلومات عن منصب الوزير يمكن استقاؤها من النقوش والنصوص المدونة على جدران مقبرة رخمي رع الذي كان وزيرا للملك تحتمس الثالث، وأوائل عصر الملك أمنحتب الثاني، فنستنتج منها أن الملك هو الذي له حق تعيين الوزير. وكما أن للملك حق تعيين الوزير فله الحق أيضًا في عزله كما دلت نصوص أخرى على ذلك.

ومن الطريق أن الملك تحتمس الثالث عند تعيينه رخمي رع في منصب الوزارة للجنوب أسدس إليه الإرشاد ونصحه نصائح جليلة. وقد دلتنا النصوص على أن هذه التعليمات التي كان يقولها الملك لوزرائه كانت تقليدية، إذ وجدناها تقال عند تعيين كل وزير فقد عثرنا في مقبرة الوزير أوسر، خال الوزير رخمي رع، على نصوص تؤيد ذلك، كما وجدناها قد وجهت إلى الوزير حابو وزير الملك تحتمس الرابع، من ذلك على سبيل المثال قولهم: «كن يقظا لكل ما يجري في الوزارة. وإذا أتاك مشتك فيجب عليك أن تبحث بنفسك في شكايته» عاملًا حسب القانون. ولتتبع الحق ولتعلم أن غضب الإله يحل على من يؤثر المحاباة.. لتكن معاملتك لمن لا تعرفه مثل معاملتك من تعرفه، ولمن هو قريب منك مثل من هو بعيد عنك».

وزيادة على تعليمات الملك لوزيرة بأن يحكم بالعدل، وبألا يحابي أحدًا كان يرشده إلى ما يجب اتخاذه يوميًا. فيبدأ الوزير عمله في كل صباح بأن يقابل الملك ويعرض عليه المسائل الحكومية لكي يبدي فيها رأيه. ومن هذا نرى أن الملك كان هو الرأس المفكرة العليا التي تدير سياسة البلاد.

وفي أثناء مقابلة الوزير للملك يكون رئيس المالية منتظرًا عند إحدى ماريات القصر؛ فإذا خرج الوزير تداول معه في أمور الدولة. ثم بعد ذلك يدخل رئيس المالية على الملك ويعرض عليه الشؤون المالية وما اعترى خزينة الدولة من نقص أو زيادة (وطبيعي كانت في شكل مواد

أولية كالأخشاب والخضر والجلود والأقمشة وما أشبه). وبعد ذلك يأمر الملك بفتح دواوين المصالح الحكومية مما يدل على أن الملك كان يرشد كل وزير على ما يجب أن يبت فيه من أمور تهمه وتهم الدولة المصرية القديمة.

وفضلا عن إشراف الملك على وزير المالية، فقد كان هذا الوزير تحت رقابة ورئاسة الوزير الأول للدولة الذي كان يعتبر عندئذ كرئيس الوزراء الآن. إذ دلتنا النصوص على أنه كان يكتب التقارير للوزير الأول باستمرار ليطلعه على الحالة المالية العامة للدولة.

وقد كان لمنصب الوزير الأول للدولة في هذه العصور القديمة من الأهمية الكبرى والمكانة العظمى ما لمنصب رئيس الوزارة في العصور الحالية، فقد كان الرئيس الأعلى للقضاء. ففي مقبرة رخمي رع نجد رسما لمجموعة قوانين مطوية في أربعين ملفا برديا محفوظة داخل أغلفة من الجلد وموضوعة أمام الوزير بصفته القاضي الأعظم «ساب سبختي» وهو جالس في دار المحكمة في إحدى الجلسات العلنية. (مع ملاحظة أن المرجع الأخير للمسائل الجنائية كان الملك، والمرجع الأخير في المسائل المدنية كان الوزير. وحتى في عصرنا الحاضر نجد العفو في المسائل الجنائية من حق جلالة الملك).

كما كان وزير الحربية، وبصفته هذه، يشرف على الجيش والأسطول، وبمعنى آخر كان الرئيس الأعلى للجيوش البرية والبحرية. وكان لمصر أسطول عظيم سطر في سجل التاريخ انتصارات كبيرة. وكان

الوزير أيضًا المشرف على الشؤون الداخلية، وكان بهذه الصفة رئيسا للبوليس في منطقة اختصاصه ومحافظا للعاصمة.

ثم كان أخيرًا المشرف على الشؤون الزراعية.

نرى من كل ما سبق مبلغ ما كانت عليه مصر القديمة من رقي ومدنية في الحضارة، وترتيب وتنظيم في الشؤون الإدارية، ودقة ومهارة في تكييف الأمور والتصرف فيها.

حاكم السودان العام

في تاريخ مصر الفرعونية

من طريف ما يحدثنا به التاريخ إنه عند تولي الملك تحتمس الأول عرض الوادي حوالي سنة **1537** قبل الميلاد في ظلال الوحدة أرادت الحكومة المصرية إرسال نبأ تولية الملك الجديد على عرش الوادي فكتبت ما معناه:

(أمر ملكي إلى حاكم السودان العام المدعو توري لكي يعلم أن جلالة الملك تحتمس ملك الشمال والجنوب وينشر ألقابه ويعلن أن حلف اليمين أصبح باسم الملك تحتمس).

وكان يلقب حاكم السودان العام بلقب الابن الملكي للسودان وليست كلمة ابن هنا معناه أن يكون الحاكم حقًا من أبناء البيت المالك ولكن هذا اللقب في الواقع معناه أن حاكم السودان مقرب من الملك وله شرف الاتصال به ويهدف هذا اللقب إلى إظهار عدم تفريق ملك الوادي بين مصر والسودان من جهة الحكم والإدارة وحتى يشعر أهل السودان أن فرعون مصر قد أرسل إليهم من هو في حكم ابنه ليدير دفة شؤون البلاد الشقيقة.

وكان لحاكم السودان العام توري السابق الذكر شرف الخدمة في عهد ملوك عديدين، فقد تقلد منصبه في أواخر عهد الملك أحمس الأول مؤسس عصر وحدة وادي النيل الثالثة وبقي حتى عهد الملك تحتمس الثاني، مما يدل على أن شاغل مثل هذا المنصب يبقى فيه طيلة عمره ما دام يؤدي عمله على الوجه الأكمل ومخلصا لملك الوادي.

ومن الطريف أيضًا أنه بابتداء عصر الملك أمنحتب الثالث حوالي سنة **1405** قبل الميلاد نجد حاكم السودان العام يحمل لقبا آخر وكان يحمله الوزير أيضًا معناه (حامل المروحة على يمين الملك) مما يدل عن أن حاكم السودان أصبح أكثر تقربا في بلاط ملوك عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة)

وكان من اختصاص حاكم السودان تصريف الشؤون الإدارية والإشراف على المسائل القضائية والمالية. أما شؤون السودان العسكرية والحربية فقد كانت من اختصاص رئيس جنود الرماة بالقوس في السودان. وقد كان الحد الفاصل بين منطقة اختصاص حاكم السودان ومنطقة اختصاص وزير الجنوب عند جزيرة بجا القريبة من جزيرة فيلا بأسوان.

وكان يساعد الحاكم العام للسودان موظفان آخران أحدهما لقبه (أدنوان واوات) واختصاصه من أسوان إلى الشلال الثاني، والثاني لقبه (أدنوان كوش) واختصاصه الإقليم المحصور بين الشلالين الثاني والرابع.

كذلك كان يساعد الحاكم العام للسودان موظفون آخرون كالكتبة ومحاسب الذهب لأهمية الذهب في السودان وكثرة وجوده بكميات وفيرة هناك في تلك العصور.

هيرودوت في مصر

زار هيرودوت مصر حوالي عام **460** قبل الميلاد ضمن البلاد الأخرى التي زارها، ولم يمر هيرودوت بمصر وبغيرها من الأقطار مرورا عابرا بل كان خلال رحلاته شديد الملاحظة يسأل ويدقق النظر في كل معبد أو بناء مشهور يراه وفي عادات أهل البلاد التي يمر بها.

لذلك ألف هيرودوت تاريخه عن مصر من وحي مشاهداته وما سمعه خلال رحلته، فدوّن ذلك مؤيدًا برأيه الخاص أحيانًا. وفي هذا يقول «يجب علي أن أقص الرواية كما قيلت لي ولست مجبرا على تصديقها» لا سيما وقد اعترضته صعوبة عدم معرفته اللغة المصرية الفرعونية فكان يعتمد على ما يرويه له الأدلاء وخدم المعابد وصغار الكهنة الذين كانوا بدورهم لا يعرفون اللغة اليونانية معرفة تمكنهم من الإدلاء بما يعرفونه من المعلومات، ورغم كل ذلك فقد كتب هيرودوت موسوعة تاريخية خصص منها لمصر الجزء الثاني وفصولا من الجزء الثالث، وإننا لا يسعنا إلا القول بأن علماء الآثار والتاريخ والاجتماع يعتبرون نصوص كتاب هيرودوت العمدة في تاريخ مصر. إذ أن هذا الكتاب اليوناني أول كتاب مفصل متعدد النواحي وصل إلينا عن مصر القديمة، فضلًا عن النقوش المصرية القديمة التي لم يوفق العلماء إلى قراءتها والكشف عنها إلا في القرن الماضي.

وقد صدق هيرودوت في بعض معلوماته التاريخية عن مصر نذكر منها على سبيل المثال وصف اللابيرنت (فقرة **148**) وطريقة بناء الأهرام (فقرة **124**، **134**) واكتشاف علم المساحة في مصر وانتقاله منها إلى اليونان (فقرة **109**) وأن المصري أول من عرف السنة الشمسية (فقرة **4**) وطريقة التحنيط (فقرة **86**) وذكره الملك مينا (فقرة **4**و **99**).

كما أن هناك معلومات جغرافية صحيحة في كتاب هيرودوت جديرة بالتنويه نذكر على سبيل المثال ما أورده عن حدود مصر الجغرافية شرقًا وغربًا (فقرة **8**) وبحيرة موريس (فقرة **149**) وأسماء بعض البلاد المصرية وموقعها مثل هليوبوليس وطيبة ومنف (فقرات **3**– **59**– **119**– **153**) وفروع نهر النيل (فقرة **17**– **155**).

وطبيعي أن نجد إلى جانب معلومات هيرودوت الصحيحة بعض الأخطاء التاريخية وبعض المعلومات الجغرافية الناقصة وقد أشار إلى ذلك حضرة الأستاذ وهيب كامل في كتابه «هيرودوت في مصر».

الفصل الثاني

بحوث اجتماعية

1- عيد الجلوس الملكي في تاريخ مصر الفرعونية
2- ما أسدته مصر القديمة للعالم الحديث
3- الطب عند قدماء المصريين
4- الموسيقى عند قدماء المصريين
5- النسيج عند قدماء المصريين
6- مركز المرأة في مصر القديمة

عيد الجلوس الملكي
في تاريخ مصر الفرعونية

كانت حفلات التتويج في مصر الفرعونية تتبع نظاما خاصًا يكاد أن يكون هو نفس النظام المتبع في الدول الحديثة، وقد ترك لنا التاريخ وصفا رائعًا لحفلات تتويج الملك رمسيس الثاني الذي كان من أقرب ملوك الفراعنة إلى قلوب أبناء وادي النيل.

بني الملك رمسيس الثاني، الذي حكم وادي النيل من سنة **1291** إلى سنة **1224** تقريبًا قبل الميلاد معبدا كبيرًا في الجهة الغربية من طيبة (الأقصر حاليًا) هو معبد الرمسيوم، ووصف على إحدى جدراته مناظر ونصوص تتويجه التي كانت تسير على النهج الآتي:

أولًا: تلاوة صلاة خاصة.

ثانيًا: رش مياه الطهارة والحياة المقدسة على الملك.

ثالثا: إعلان ألقاب الملك الرسمية.

رابعًا: إعلان اختياره وتقديمه لرجال البلاط.

خامسًا: إرسال الخبر إلى الحاكم السودان العام.

سادسًا: إطلاق أربع حمامات تحمل كل حمامة رسالة في عنقها فيها خبر تتويج الملك إلى الجهات الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية.

ثم يلي ذلك احتفال عظيم يطلقون عليه اسم «الشروق» لأن الملك رمسيس يشرق عليه أمام شعبه كما يتجلى إله الشمس رع أو كما تطلع عليهم شمسه المشرقة. ثم يلي هذا ظهور الملك على رأس موكب عظيم يضم كهنة يحملون تماثيل من ملوك مصر: وعلى رأسهم تماثيل ملوك مينا، و"نب – حبت – رع"، وأحمس الأول. وهم واضعو أساس عصر وحدة وادي النيل الأول والثانية والثالثة كما سبق الإشارة إليها.

وهذا يدل على أن قدماء المصريين قد أدركوا أن كلا من هؤلاء الملوك الثلاثة يبدأ عصرا تاريخيًا مهما وفترة قائمة بذاتها لها خصائصها ومميزاتها، فإن كل حالة من هذه الحالات الثلاث تبدأ عند بدء اتحاد مصر والتفاف شعب وادي النيل حول عرش ملك مصر.

ولقد كانت حفلة تتويج رمسيس الثاني ذات أهمية تاريخية لأنها إلى جانب كونها احتفالا بذكرى ارتقاء الملك عرش مصر فهي ذكرى لقيام وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر في عصور مصر الزاهرة المختلفة.

وكان يدعى إلى هذه الحفلة الأمراء وكبار الموظفين ورجال البلاط ومن إليهم ليشتركوا في الاحتفال وليروا الملك الجديد.. وبعد ذلك يتقبل الملك التهاني من رجال بلاطه وحاشيته ومن كان غائبًا يرسل تهانيه بالرسائل كما تنص نصوص أخرى على ذلك.

وكان يحيط بالملك الجديد عدا الوزراء عدد كبير من موظفي القصر الملكي يرأسهم رئيس الديوان الملكي (تبي شنوت) وكبير الأمناء (اوحم– عا– أن– نيسون) والأمين الأول (تبى – أوحم – أن– نيسوت) والقضاة وقادة الجيش [51] وكان يسمح لكبار رجال الدولة بتقبيل يد الفرعون، وأما الأمراء فكانوا ينحنون فقط احتراما في حضرة مليكهم.

(51) نفاخر بأن مصر هي الدولة الأولى في التاريخ القديم التي وضعت أساليب الحرب التي يتبعها قواد الجيش الحيثيين، هذه الأساليب التي أهم ما فيها تقسيم الجيش إلى فرق وإلى قلب وجناحين كما أن الجندي المصري استعمل النبال (المقلاع) بجانب معداته الحربية القديمة فكان لهذا التجديد في حروب الرعامسة أشبه شيء باختراع المدافع في العصر الحديث.

ما أسدته مصر القديمة للعالم الحديث

ليس من ينكر ما كان للحضارة المصرية القديمة من أثر في نواحي العلوم، والفنون والآداب والفلسفة، منذ فجر التاريخ لأنه بالرغم من قيام حضارات مختلفة في العصور القديمة،

في أجزاء متعددة من أنحاء العالم فقد كان وادي النيل مهد الحضارة البشرية الأولى، ومنه انتشرت إلى بلاد الشرق والغرب على السواء، لذلك تدين الحضارات الحديثة لقدماء المصريين بكثير من الأشياء.

فمن أهم ما أخذه العالم الحديث، عن مصر القديمة، استعمال بعض عناصر الأبجدية في اللغات المختلفة، لأن من أهم عناصر الحضارة الحديثة، طريقة كتابة اللغات بالحروف الأبجدية. ومن الثابت تاريخيًا أن الفينيقيين اقتبسوا أصول التصوير عن الهيراطيقي، واخترعوا لأبجديتهم إشارات خاصة للدلالة عليها، واستعملوها لكتابة لغتهم، وعنهم اقتبسها اليونان والرومان، ومن ثم انتشرت في كثير من بقاع العالم الحديث، فكانت هذه أول أبجدية ظهرت في العالم، وبذلك تركت مصر أثرًا ظاهرًا في البلاد الأخرى.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن مصر اخترعت الحبر (والورق البردي) فسهلت بهذين الاختراعين عملية تدوين آثار الإنسان العقلية، وثروته الذهنية وقدمت للعالم أجل أثر، وأجمل يد.

أما فيما يختص بالتقويم، فقد كان قدماء المصريين أول المتحولين عن التقويم القمري، إلى التقويم الشمسي، إذ تنبهوا عام **4241** ق.م إلى أن السنة الشمسية تشتمل على **365** يوما. والتقويم المصري هذا هو التقويم الذي حمله (يوليوس قيصر) من مصر، حوالي عام **48** ق.م. إلى روما، وهو التقويم الذي عدله مجمع الكرادلة الذي عقد برئاسة البابا «جريجوار الثالث عشر» تعديلا طفيفا عام **1582**م، ثم صار تقويم العالم كله اليوم. ويعتبر هذا الاكتشاف الميقاتي واستعماله في شؤوننا العالمية، خطوة كبيرة نحو الرقي والمدنية وفخرا عظيمًا للوطن الذي اكتشفه، كذلك قسم قدماء المصريين سنتهم إلى إثنتي عشر شهرًا، وجزءوا كل شهر إلى ثلاثين يوما، ثم أضافوا كل اثنى عشر شهرا خمسة أيام كي تكمل السنة الشمسية، (أو ستة أيام كل أربع سنوات كما حصل في عهد بطليموس الثالث) وابتكر المصريون أيضًا طريقة لقياس ساعات اليوم، وهي المزاول (الساعات الشمسية) للنهار، والساعات المائية لليل. فقياس الزمن بالسنين والأشهر والأيام والساعات كما هو حاصل اليوم يرجع في حقيقته إلى مصر القديمة.

***

أما في فن العمارة، فقد برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور فيه، وتركوا أثرًا ظاهرًا في البلاد الأخرى، فالمصريون هم أول من اخترعوا قوالب الطوب المستعملة حتى اليوم في البناء، لا في مصر وحدها، بل في كثير من البلاد الأجنبية. كذلك هم أول من استعملوا الحجارة في البناء، وأول من وضعوا (الجبس) بين الحجر والآجر، ففي الحفائر التي يقوم بالإنفاق عليها مولانا جلالة الملك فاروق الأول أدامه الله بجهة حلوان، والتي يرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى (حوالي سنة **3200** ق.م) نجد استعمال (الجبس) بين أحجار مقابر هذا العهد السحيق. ثم بدأت منذ عصر الأسرة الثالثة، المباني العظيمة من الحجر، كهرم (زوسر)، والأعمدة المرتكزة على حوائط معبده.

فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الرابعة، وجدنا هرم (خوفو) المقام من كتل عظيمة من الأحجار على مساحة تبلغ الاثنى عشر فدانا، وارتفاعه حوالي **140** مترًا وهو أشهر عجائب العالم السبع، ولا يزال ماثلا للعيون، ويزيد عمره على **4000** سنة، ومع هذا فهو باق يشهد مجد مصر الخالدة. ولو علمنا أن تلك الكتل الحجرية الكبيرة التي استعملت في بناء هذا الهرم تبلغ نحو **2300000**حجرا متوسط ثقل الحجر طنان ونصف طن، لهالنا أن نتصور ما يتطلبه نقلها وحملها إلى الارتفاعات المطلوبة من مقدرة في فن العمارة وغيره من العلوم، كالهندسة، والحساب، والرياضيات، مما تحكم بأن الأهرامات [52] ما هي إلا آية من

(52) من الطريف أن الملك كان يبني الأهرامات في أيام فيضان النيل فقط، وكان يقوم ببنائه المصريون وقد خصص الملك أيام الفيضان للبناء حتى يساعد الفلاح المصري الذي تغمر المياه أراضيه في ذلك الفصل من السنة على اكتساب قوته وإيجاد عمل له وذلك خلافا لما هو

آيات فن البناء، وما هي في الواقع إلا مدى الخطوات الواسعة التي خطاها فن المعمار والعلم في تلك العصور السحيقة.

وهذا التطور في البناء من الطين إلى الطوب، إلى الحجر، إلى بناء الأهرامات، كانت نتيجة محتمة لتطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والدينية في مصر القديمة. وقد راق هذا الفن في أعين أثرياء الرومان الذين بنوا مقابرهم على شكل هرم صغير حتى إلى عهد أغسطس قيصر روما.

ومن الأمثلة العديدة لتقدم فن المعمار في مصر القديمة: معابد الدير البحري والكرنك وأبي سنبل، ومقابر الملوك وغيرها مما يضيق المقام بذكره.

أما من حيث الزخرفة المعمارية، فلسنا بالمغالين إذا قلنا أن العالم الحديث مدين في كثير من زخارفه للمصريين، فالتزيين بالزهور لا سيما زهرة اللوتس المصرية، والبردي والبشنين واستعمال سعف النخيل ورسم قرص الشمس ذي الأجنحة وإقامة المسلات وتشييد الأعمدة لا سيما النوع المعروف بالدوري (دوريك **Doric**) ما هي إلا زخارف مصرية، اقتبسها الآشوريون، والفرس عن المصريين ثم انتقلت عنهم إلى الإغريق والرومان، وبعد ذلك نراها تنتشر مع تغيير طفيف في أنحاء العالم المتمدين.

شائع من أن بناء الأهرامات سخرة للمصريين أو أن أسرى قاموا به.

ولم يكن حظ قدماء المصريين من الزراعة بأقل من حظهم في الشؤون الأخرى فهم أصحاب أقدم حضارة زراعية عرفها العالم إلى اليوم، لأن إنسان العصر الحجري الحديث (نيوليتكم) ابتكر زراعة الأرض ونجح في استئناس الحيوان، وإخضاعه لأغراضه، بعد أن كان يعيش على الصيد في العصر الحجري القديم واستخدم الفأس، والمحراث وغيرهما من الآلات التي ما زلنا نستعملها إلى يومنا هذا.

أما أثر قوانين قدماء المصريين في التشريع الحديث، فالبحوث العلمية أثبتت أن أغلب القوانين الرومانية التي تعتبر أساسا للقوانين الحديثة، ترجع إلى قوانين قدماء المصريين.

الطب عند قدماء المصريين

قلنا إن المصريين هم أول من خطَّ بالقلم على الورق البردي لأنهم مخترعوه، ولورق البردي أهمية خاصة فالفضل مثلًا في إظهار تاريخ الطب عند قدماء المصريين يرجع إلى ما وجدناه مدونا على ورق البردي.

وقد وصل إلينا كثير من مؤلفات قدماء المصريين في الطب، وأقدم الكتب الطبية يرجع تاريخه إلى الملك «قتا» ثاني ملك من ملوك الأسرة الأولى، وقد حكم حوالي سنة 3170 ق.م (أي أوائل عصر الوحدة الأولى) كما أن بعضها كتب في الجراحة على أساس علمي صحيح دل على أن الجراحين القدماء شخصوا كثيرًا من الحالات تشخيصا صحيحًا وعرفوا طريقة علاجها، بل أنهم استعملوا أدوية لتخدير الأجزاء التي يراد قطعها وتشريحها. ومن أهم هذه المؤلفات التي تبحث في الجراحة بردية «أدون سميت التي تحوي 22 صحيفة، ويرجع تاريخها إلى حوالي سنة 1550 ق.م (أي أوائل عصر الوحدة الثالثة). وتعتبر أقدم مرجع في العالم في فن التشريح والجراحة. ومن المحتمل أن تكون هذه البردية نسخت من مؤلفات سابقة لعصرها.

وتشتمل هذه البردية على الجروح التي تصيب الجسم ثم تشخيصها وعلاجها وتبتدئ بذكر جروح الرأس وتنتهي بالقدمين، أي متوخية ترتيب الأعضاء من أعلى إلى أسفل. ولعل الاتجاه إلى هذا الترتيب

هو الخطوة الأولى في مقدار معرفتهم بالطب ودقتهم فيه وتنظيمهم له. ويمكن اختصار أهم حالات الأمراض الواردة في هذه البردية بالطريقة الآتية:

أولًا: أمراض الرأس. ثانيًا: أمراض الأنف. ثالثًا: أمراض الفك العلوي. رابعًا: أمراض الصدغ. خامسًا: أمراض الأذن والفك السفلي. سادسًا: أمراض الشفتين والذقن. سابعًا: أمراض الحلق والرقبة. ثامنًا: أمراض الكتفين. تاسعًا: أمراض الصدر والثديين. عاشرًا: أمراض العمود الفقري، (والبردي أتلفت هنا ثم ذكرت أمراض إصبع القدم). فيتضح من ذلك أن الطبيب المصري القديم راعي حسن الترتيب بطريقة علمية منظمة.

كذلك قسمت الجروح إلى جروح نتيجة لمعارك أو عض، وجروح من أثر حريق، وجروح نتيجة ضرب. ثم ذكرت كسر العظام والضلوع، وكسر الذراع وهكذا. وهذا مما يدل على مهارة الطبيب المصري القديم في تحريه الوقوف على سبب المرض أو سبب الجرح ثم علاجه، أي وصف الداء، ثم إعطاء الدواء كما يجري الآن في وقتنا هذا.

وكذلك وصلتنا أوراق بردية بها وصفات لطرق علاج الأمراض المختلفة التي كانت سائدة في ذلك الوقت: مثل ما نسميه اليوم البلهارسيا (البول الدموي المصري)، والحمى القصيرة أو الطويلة، وأمراض المعدة، والديدان المعوية، والقلب والكبد، وباقي الأمراض

الباطنية، وأمراض النساء كالتهاب الثدي أو ارتخائه، ونزيف الرحم وإيقاف النزيف والتهاب الرحم وغير ذلك.

ومن أمراض الأسنان مثلًا التهاب اللثة أو تلف الأسنان أو تثبيتها. ومن أمراض الأذن فقد السمع أو ضعفه أو نزول الصديد من الأذن. ومن أمراض العيون غزارة دموع العين، وضعف النظر، وورم العين والتهابها أثناء الزكام، والرمد الصديدي والحبيبي وغيرها.

وكذلك وصلت إلينا الطرق التي تعالج بها حالات القيء كإيقافه أو تلطيفه أو إحداثه عند اللزوم في بعض الحالات.

وكذلك عرفوا المستهلات، بل كان قدماء المصريين يعرفون أن الشرايين تبدأ من القلب وتأخذ منه الدم ثم تذهب إلى كل عضو، أو بعبارة أخرى عرفوا أن القلب له علاقة بجميع الأوعية ومتصل بكل عضو، بل زيادة على كل ذلك فقد عرفوا النبض.

وقد وصلت دقة المصريين القدماء في تلك العهود السحيقة إلى ما نحن نكافح من أجله في عصرنا الحاضرة وهو الوقاية من الأمراض واستعملوا الحقن في إدخال السوائل في الجسم.

وليس أدل على مقدرة المصريين القدماء في الطب وبراعتهم فيه من فن التحنيط وما استعمل فيه من آلات، فوصل تحنيط جثث الفراعنة إلى أعلى درجة من الإتقان بدليل تلك المومياوات التي أخرجت من مراقدها بعد مضي آلاف السنين وما زالت تحتفظ بشكلها الآدمي كما

كانت وقت الحياة. والسبب في اهتمامهم بالتحنيط هو أن من بين معتقداتهم الدينية أن الحياة لا تنتهي بالموت، بل إن هناك حياة أخرى بعد الموت وهي البعث.

ومن شدة اهتمام المصريين القدماء بعودة الروح لتزور جثتها أن القانون المصري القديم جعل الإعدام عقوبة من يسرق من مقبرة ويمس المومياء. فلا غرابة في أن نجد لذلك عند المصريين رجالا اختصوا بفن التحنيط وغالبًا كانوا من طبقة الأطباء.

وأهم شيء في عملية التحنيط هو استخراج الأحشاء بواسطة شق جدران البطن بسكين حاد وتنظيفها ثم وضعها في صندوق يعرف بصندوق الأحشاء ثم استخراج المخ من منافذ الأنف بقضبان عقفاء من حديد فيجذبون منه ما يمكن إخراجه من الجمجمة، وما بقي يستأصلونه بعقاقير يقذفونها في تجاويف الجمجمة، ثم يعالج كل الجسم بالنترون، ثم يغسل ويلف في لفائف من الكتان.

كذلك مما يدل على براعة المصريين القدماء في الطب تخصص أطبائهم في مختلف أمراض فروع الطب. فبعضهم كان يختص بأمراض النساء، والبعض بأمراض الأسنان، والبعض بأمراض العيون، والبعض بالأمراض الباطنية، والبعض يختص بأمراض الحيوان، (وكانت الحيوانات والطيور المقدسة تحفظ لاعتقادهم بقداستها كالعجل آبيس وأبي قردان).

وكان يطلق على الطبيب باللغة المصرية القديمة اسم سن (سيني)، وكان للملك طبيب أو أكثر من طبيب خاص، ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد وزراء الملك مرض مرة فأرسل له طبيبه الخاص مما يدل على مبلغ ما كان يكنه الملك لوزيره من عطف ومودة.

وكان يتناقل مهنة الطب الابن عن الأب في أغلب العصور.

ودلت البحوث الطبية الحديثة على أن لقدماء المصريين فضل السبق على اليونان في عالم الطب؛ فقد كان اليونانيون يشيدون بذكر الأطباء المصريين، ويتناقلون كتب طبهم ويحفظونها ليهتدوا بها، وعن اليونان أخذ الكثير من ممالك العالم الحديث.

الموسيقى عند قدماء المصريين

المصري القديم مرح بطبعه يغني في المترل وفي الشارع وفي الفرح وفي كل مناسبة من مناسبات الحياة. ونلاحظ حتى الآن أن الفلاح يغني في الحقل وكذلك الفلاحات عند ملئهن الجرار من النيل مما يدل على وراثة المصريين لحب الغناء.

وقد تفنن المصري منذ القدم في نوع هذه الأغاني، فمنها ما يتصل بالعمل ومنها ما يتصل بالعبادة ومنها ما يتصل بالغرام. ومن الصنف الأخير نجد الأغنية الآتية:

«عندما أقبل الحبيبة وأفتح فمها لا أحتاج إلى خمر أشربها.

أذهب إلى فراشي وقد أعياني داء الغرام وعادني جيراني وبينهم حبيبتي التي زجرت الطبيب عندما حاول علاجي لأنها أعلم بمواطن دائي».

وغير الغناء نجد الموسيقى، وقد أثبت المؤرخون أن أجدادنا استعملوا آلات الطرب المختلفة منذ أقدم العصور، سواء أكانوا في منازلهم في الولائم والأفراح أم في المحال العامة في الأعياد والاحتفالات الدينية. ونحن نستطيع أن نفرق بين نوعين منها موسيقى مترلية وأخرى عامة، ونحن نعنى بالموسيقى المترلية.. هذه الموسيقى التي تحتاج إلى الآلات

التي كان من السهل العزف عليها لغير المحترفين، كما نعني بالموسيقى العامة هذا النوع الذي يحتاج إلى مجموعة من الآلات التي لا بد منها لتكوين فرقة موسيقية كاملة.. وهذه الآلات الموسيقية كما عثر عليها في الآثار أو جاءتنا عن طريق الصور أو النصوص تدل دلالة واضحة على براعة قدماء المصريين في صنع هذه الآلات وإجادة العزف عليها؛ فنصوص الدولة القديمة وصورها تطلعنا على أن (مري – بتاح – رع) كان يرأس فرقة موسيقية تتكون من مغن ومن عازف على العود وآخر للربابة ونافخ في الناي. كما أن (حم رع) كان يرأس فرقة موسيقية تغني فيها امرأة.

أما إدارة الفرقة قديما فكانت لا تختلف كثيرا عن إدارة الفرقة الموسيقية الأوربية مع ملاحظة أن المدير كان يرى جالسا أحيانا. ومن الجدير بالذكر أن هذه الإشارة التي كان يقوم بها الرئيس يعبر عنها في اللغة المصرية القديمة بفعل مخصص باليد لأن اليد هي العضو المهم في تأدية هذه الحركة.

وكانت الألحان في ذلك العصر من هذا النوع الهادئ الرقيق، وهذا الطابع الموسيقي كان ملحوظ أيضًا في الموسيقى الراقصة التي كانت تتفق تمام الاتفاق وحركات الرقص وأوضاعه في ذلك الحين. وليس معنى هذا أنه كانت تستتبع وجود آلات موسيقية للرقص، بل كثيرا ما كانت تكتفي باليدين، ونجد أحيانا بعض الراقصات يغنين أثناء رقصهن.

أما أوضاع الجسم فكانت تتغير تغيرا كثيرا حسب ما تتطلبه الرقصة المطلوبة فنرى أحيانا صورة امرأة وقد ألقت رأسها وصدرها إلى الخلف، أو قدمت إحدى ساقيها على الأخرى، وهكذا من ضروب الرقص الكثيرة.

وكان المثل الأعلى في الموسيقى المترلية هو ما يوجد في القصر الملكي إذ كانت تعزف فيه فرق كثيرة متنوعة تحت إشراف فنان عظيم.

ومثل الدولة القديمة نجد الدولة الوسطى، بينما في الدولة الحديثة نرى الموسيقى وقد تطورت تطورا عظيما، فمن هدوء رقيق إلى صخب مقلق. ولعل ذلك يرجع إلى الأثر الأسيوي الذي دخل البلاد في ذلك العصر مع الهيكسوس. فمثلا الآلات الموسيقية ذات الوتر الواحد تعددت أوتارها التي كانت تصنع من الليف المضفور، وتنوعت أحجامها أيضًا وقد دخلت آلات موسيقية جديدة في ذلك العصر كالآلة الكنعانية المسماة (كنور) والقيثارة والرق والرباب الجانبي (مندولين) وحل المزمار المزدوج محل الطويل المنفرد، كما شاع في ذلك الوقت بين الشعب الناقرون بالعصى والمصفقون بالصاجات.

وكما كانت الموسيقى حماسية قوية في ذلك العهد، كذلك كان الرقص والغناء، حتى إن بعض المغنيات المصريات كن يرحلن إلى الأقطار المجاورة لنشر فن الرقص والغناء المصري في الأقطار الأخرى، كما نعلم ذلك من قصة سياحة (ونآ مون).

وقد استمر الحال كذلك حتى العصر اليوناني الروماني، وخاصة الآلة المصرية المعروفة (مستروم). بل نجد (فيثاغور) أبا الموسيقى عند

اليونانيين يحضر إلى مصر ويتعلم الفنون الموسيقية كما حدثنا بذلك (ديوجينيس)، ويتحدث هيرودوت أبو التاريخ كثيرا حديث الإعجاب حدثنا عن الآلات الموسيقية المصرية كحديثه مثلا عنها في عيد (أرتميس) في تل بسطا.

***

هذا عرض موجز للموسيقى المدنية عند قدماء المصريين وليس معنى هذا أنه كانت تنقصهم الموسيقى الحربية، فالنصوص والرسوم والآثار التي وصلت إلينا كثيرة في هذا الصدد، وهي تجمع على أن المصري منذ فجر التاريخ كان أول من نفخ في البوق في النداءات العسكرية وأول من دق على الطبل لتنظيم المشي في المناورات الحربية بخطوات عسكرية واحدة. وهم أول من ابتدأوا السير في الاستعراضات العسكرية بالرجل اليسرى مع أن الأمم الحديثة تعتقد أنها هي التي ابتكرته. مما تقدم نرى أن المصري القديم لم يحرم نفسه لذة الطرب والغناء والموسيقى والرقص

النسيج عند قدماء المصريين

كفل نهر النيل لهذه الوادي وسكانه كل أسباب قيام الحضارة واستقرارها فيه وفي قيام الصناعات التي ترتبت على وجود الزراعة كالنسيج لذلك كانت مصر منذ فجر التاريخ مشهورة بمنسوجاتها الكتابية ففي حفائر مرمدة (بني سلامه) عثر المنقبون على قطع من غزل الكتان فلا شك إذن في أن الغزل والنسيج كانا من أقدم الحرف في مصر.

ومن الطريف أن صور هذه الصناعات وجدت منقوشة في بعض المقابر؛ ففي مقابر بني حسن التي يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة المعروفة في التاريخ بأنها الأسرة الثانية عشرة، نرى رسوم الأدوار التي تمر على نبات الكتان من تعطين ودق وتمشيط وغزل ونسج. هذا إلى أنه كشف عن نماذج لنساء يشتغلن بالغزل والنسيج في مقابر الأسرة الحادية عشرة في طيبة. كما وجدت في كثير من المقابر والمباني المدنية كالمنازل بقايا بعض الملابس والمنسوجات وأدوات النسيج.

وكانت الأقمشة الكتانية تُصدر إلى بلاد اليونان في العصور الفرعونية الأخيرة كما حدثنا بذلك هيرودوت وكما ذكر في سفر أشعيا.

وتلي صناعة الكتان في الأهمية صناعة الأصواف، ويرجع تاريخ هذه الصناعة إلى عصر فجر التاريخ فقد وجد الأستاذ زكي سعد في الحفائر التي يقوم بالإنفاق عليها حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول بجهة حلوان بعض الآثار المصنوعة من الصوف.

واستمرت في العصر القبطي مزاولة صناعة الغزل والنسيج في المنازل إلى جانب المصانع وكانت هناك ضرائب تفرض على الناسجين كضريبة الترخيص بمزاولة صناعة نسيج الكتان.

ومن الطريف أن نلاحظ أن زخارف المنسوجات الملونة كانت منقوشة بطريقة التابستري **Tapestry** أي بتقاطع خيوط اللحمة بخيوط السداة حتى إذ وصل النساج إلى النقطة التي يريد زخرفتها أوقف عملية الحشو بخيوط اللحمة وأخذ في عمل الزخرفة بخيوط جديدة تختلف في لونها عن خيوط اللحمة الأصلية. وقد تختلف عنها في نوعها وذلك بنسج هذه الخيوط الجديدة مع خيوط السداة الأصلية، وبعد الفراغ من عمل الزخرفة تنظم خيوط السداة كما كانت من قبل ثم تستأنف عملية النسج التي كانت تزاول قبل الزخرفة، وكان للمصريين قدرة فائقة في استعمال الألوان.

وهذه الطريقة طريقة التابستري هي التي حذقها أجدادنا الفراعنة وبلغوا فيها شأوا عظيمًا وقد ورثها عنها أحفادهم الأقباط وحافظوا عليها طوال العصور.

ولقد كان لجو مصر الفضل في الإبقاء على الكثير من المنسوجات وعلى الاحتفاظ بألوان زخرفتها الزاهرة كما نشاهد في آثار الملك توت عنخ آمون وفي قسم المنسوجات والأقمشة بالمتحف القبطي.

مركز المرأة في مصر القديمة

مقام المرأة من الوجهة الاجتماعية

تعدد الزوجات أمر لم يكن معروفا عند قدماء المصريين، إلا أنه كان للرجل الموسر الحق في أن يضم إليه كثيرات من المغنيات والجواري، كما أنه كان للملك الحق في أن يتخذ إلى جانب زوجته الشرعية (الملكة) زوجات أخريات لا حق لهن في وراثة العرش.

وكانت الزوجة تعرف باللغة المصرية القديمة بما معناه «زوجته المحبوبة وربة الدار» فكانت هي التي تشرف على إدارة المترل وتربية الأطفال بجانب اهتمامها بزوجها، وبجانب هذا الشأن الذي لها في حياة الأسرة وكيالها فقد كانت ذات شأن في الحياة العامة كما سنرى ذلك فيما بعد. ولم يكن اهتمامها بالمترل وبأسرها عائقا لها عن التزين والتأنق فكانت تخضب أنامل يديها وأصابع قدميها وتكحل عينيها وتلون شفتيها باللون الأحمر كما تفعل المرأة الحديثة في أيامنا، ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة العصرية لألها كانت تستعمل الفرشاة عند التلوين وتضع على وجهها مختلف المساحيق التي تظهرها بالمظهر الفتان، وكانت تجعد شعرها بحسب العادة الجارية في عصرها، وتزين صدرها وعنقها ويديها بالحلي والجواهر.

والأدب المصري زاخر بالعبارات التي تبين حب الابن لأمه والابنة لأمها وزاخر أيضًا بالعبارات التي بين علاقة الرجل بامرأته فكان يقبلها

ويداعبها ويعانقها ويعامله بالحسن ولا يهجرها، وكذلك يتيح لنا هذا الأدب معرفة الكثير عن خواطر المرأة والرجل وما بينهما من صلات الصداقة والحب.

وعلى سبيل المثال أورد القصة الآتية وهي مكتوبة على ورقة بردية محفوظة بمتحف ليدن وهي أن رجلا مرض بعد وفاة زوجته فاستشار أحد السحرة في ذلك فأخبره أن يكتب خطابا إلى روح زوجته فكتب إليها خطابا وذهب به إلى مقبرتها في أحد الأعياد وقرأه بصوت عال ثم ربطه بتمثالها حتى يصل إليها وقد جاء فيه: «أي ذنب جنيته نحوك أيتها الحبيبة حتى أقع فيما أنا فيه من بؤس وشقاء؟ أي ذنب جنيته أيتها الحبيبة حتى تساعدي أرواح الشر ضدي؟ وماذا فعلت معك منذ زفافنا إلى اليوم؟ تزوجتك وكنت رجلا يشغل منصبا صغيرا وتدرجت بعد ذلك من منصب إلى منصب وما جال بخاطري يوما أن أهجرك وما فكرت أبدا في أن أجلب الحزن إلى قلبك. ذلك كان شعوري يوم كنت صغيرا وما تحولت عنه لما صرت كبيرا في خدمة فرعون. فلم أهجرك بل حافظت عليك في السراء والضراء.. وعندما مرضت ألم أحضر لك كبير الأطباء فبذل كل شيء في سبيل شفائك. إني لا أعلم يوما قصرت فيه في واجبي نحوك».

وقد كان للمرأة المصرية القديمة حظ موفور من الثقافة مما يسترعي النظر، فالسيدات المصريات كن مولعات بالعلوم والفنون. يحدثنا موظف يدعى «خنوم ردي» بأنه كان أمينا لمكتبة سيدة عظيمة القد رتدعى

«نفرو كابيث» ثم يقول ما ترجمته: «هذه السيدة عينتني في دندرة مشرفا على خزائن الكتب الخاصة بأم تلك السيدة التي كانت مولعة بالعلوم والفنون» ونجد بعد ذلك أن هذا الموظف ابتدأ يصف ما قام به من أعمال عظيمة في أثناء إدارته لتلك المكتبة فيقول:

«قد زدت في عدد مجاميع الكتب الموجودة بها وجلبت لها كثيرا من المؤلفات الثمينة حتى أنها لم تعد في حاجة إلى توسيع أكثر من ذلك على ما أعلم ورتبت هذه المكتبة ترتيبا حسنا لم يحدث مثله منه قبل. وقد ربطت ما كان مفككا (يعني أنه ربط لفات البردي المحلولة).

وأما من الوجهة المدنية فقد كان للمرأة كامل حقوقها في التصرف في أموالها والتصرف في عقارها دون الرجوع إلى زوجها أو ابنها أو فرد آخر من عائلتها. وقد حدث أن تصرفت أم «الموظف امتن» بكامل حريتها في ملكها بالوصية والهبة.

مقام المرأة من الوجهة السياسية

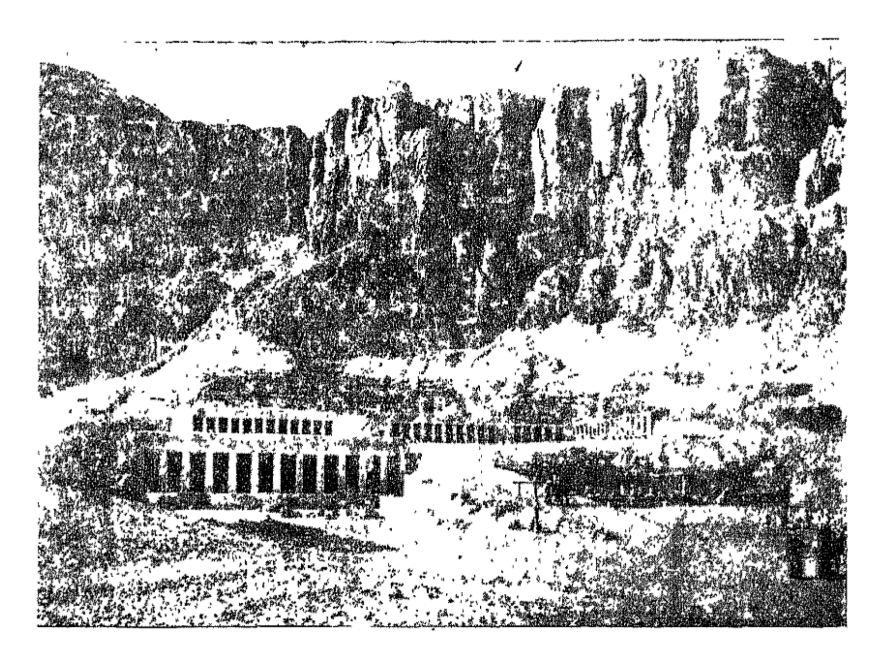
كان نظام الحكم المصري يبيح للمرأة حق تولي عرش مصر فلم تقعدها الأنوثة عن ركوب الصعاب فشاركت الرجل في هذا الجهاد، وتاريخ مصر القديم حافل بعدد وافر من شهيرات النساء اللواتي جلسن على عرش مصر. ففي الدولة القديمة نجد الملكة نيتوكريس (خنت كاواس) وفي الوسطى «سبك نفرو رع»، وفي الحديثة الملكة حتشبسوت، وفي

عهد البطالمة الملكة كليوباترة الأخيرة (أعني كليوباترة آخر من تولى عرش البطالمة. وقد أخفقت في سياستها وبعد وفاتها سنة **30** ق.م دخلت مصر تحت حكم أغسطس قيصر روما)

وسأقصر الكلام على الملكة حاتشبسوت التي تعد من أعظم الملكات اللواتي عرفهن التاريخ القديم، وهي التي حكمت مصر من سنة **1493** ق.م إلى سنة **1479** ق.م وتركت لنا آثارا كثيرة كما أنه وصل إلينا شيء كثير عن أخبار بعض موظفي هذه الملكة. ويمتاز عهدها بأنه كان عهد سلام ووئام مع الممالك المجاورة لمصر فلذلك تمكنت من أن توجه جهودها إلى أعمال السلام بالرغم من المنازعات الداخلية التي نشأت بسبب التنازع العائلي على العرش وبسبب زيادة نفوذ كبار كهنة آمون. وقد ساعدها على تنفيذ الأعمال السلمية حروب والدها تحتمس الأول، وكذلك المعارك التي خاض غمارها أخوها وزوجها الأول تحتمس الثاني وهي المعارك التي ثبتت أركان الإمبراطورية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى صغر سن تحتمس الثالث ابن زوجها الأول تحتمس الثاني من زوجة ثانية؛ فقد ساعدها كل هذه الظروف على أن تكون على جانب عظيم من القوة والدهاء.

وقد استغلت هذه الملكة مناجم شبه جزيرة سيناء سواء في صربوت الخادم أو في وادي المغارة، فأرسلت هناك البعثات تلو البعثات للحصول على مسحوق معدني النحاس والمواد الأولية اللازمة لعمل الزجاج.

وقد وجدنا كثيرا من الزجاج في هذه الجهة عليه اسم هذه الملكة، وطبيعي أن صناعته استلزمت وقودا كثيرة مما يدل على استعمال الكثير من الخشب ويجعلنا نرجح غناء هذا الإقليم بالأشجار ولم يكن صحراء جرداء كما هو مشاهد الآن.



«معبد الدير البحري الذي أقامته الملكة حتشبسوت بطيبة الغربية»

واهتمت الملكة حاتشبسوت كذلك بالمعابد فأكثرت من تشييدها. ولعل أهم ما شيدته معبدها المعروف بـــ «معبد الدير البحري»، وقد سمي بهذا الاسم حتى لا يختلط علينا في العصر القبطي مع دير آخر بني في الجهة القبلية وأقصد به «دير المدينة». ويتكون معبد الدير البحري من ثلاث شرفات مدرجة، الشرفة العليا تنتهي بصف من الحجرات. وقد بني

هذا المعبد حوالي السنة الثامنة من حكم الملكة حتشبسوت. ومن حسن الحظ أن خلد اسم المهندس الذي شيده وهو «من إن موت».

أما الذي كلف الإشراف على صنع أبوابه من البرنز المطعم بخليط من الذهب والفضة فهو أحد رؤساء المالية الذي يدعى «تحوتي».

***

ومن المناظر والنصوص التي بقيت لنا من هذا المعبد وهي ذات قيمة تاريخية فيما يخص عصر هذه الملكة، تلك التي توضح لنا طريقة ولادة الملكة حتشبسوت بناء على وحي إلهي من الإله آمون (إله الدولة في ذلك الحين) وما يثبت حق الملكة الشرعي في الاستيلاء على عرش مصر.

وقد أرسلت الملكة حتشبسوت بعثة تجارية إلى بلاد بونت (الصومال) فقد بعثت في السنة التاسعة لحكمها أسطولا مكونا من خمسين سفينة أقلع من المياه المصرية قاصدا الصومال متبعا نهر النيل شمالا حتى وصل شرقي الدلتا، ومن شرقي الدلتا عبر هذا الأسطول قناة وادي طميلات (قرب إقليم السويس) إلى البحر الأحمر.

وبعد وصول الأسطول سالما إلى بلاد بونت عاد إلى مصر محملا بخيرات بلاد الصومال فاستقبلت الملكة حتشبسوت قائده ورجاله في الكرنك بطيبة وقدمت للمعبود آمون بعض واردات الصومال.

ومن أهم ما شيَّدته الملكة أيضًا من الآثار ما أضافته إلى معبد آمون بالكرنك وإقامتها مسلتين عظيمتين فيه.

وقد بلغت ثروة المملكة المصرية في ذلك الحين درجة من الرخاء عظيمة وكانت جزية المستعمرات تصل إلى مصر بانتظام، بل من ظريف ما قالته هي عن عصرها: «إنها تكيل المعادن النفيسة كالحبوب أي بالمكاييل الكبيرة».

لقد ساهمت المرأة تقريبا في كل ناحية من نواحي الحياة في مصر القديمة فكان فيها ملكات، وكذلك كاهنات في المعابد، وطبيبات وكاتبات وموظفات وربات دور ومغنيات.

الفصل الثالث

بحوث قانونية

1- مجموعة قوانين مصرية قانون الملك حور محب

2- القانون الجنائي عند الفراعنة

3- دور العدالة:

أ- المحاكم الوطنية

ب- المحاكم المختلطة

جرت عادة لا يبررها استقصاء بين علماء علوم الآثار المصرية، وهي أن يقال عند الكلام في نظام الحكومة القضائي إن المادة لهذا الموضوع غير كافية، كذلك جرت بين علماء القانون عند الكلام في تاريخ القانون أن تهمل مصر الفرعونية تمامًا بحجة أن الفراعنة لم يسنوا قانونا جامعًا يدل على المواد التي كانت تتبع إذ ذاك مثل قانون حمورابي عند الأشوريين وقانون اللوحات الاثنتي عشرة عند الرومان،

وكان أول من حاول الخروج على هذه العادة **Revillout** [53] ثم **Pirenne** [54] ثم أخرج أخيرًا الأستاذان شارف وزيدل [55] كتابًا يبحث في تاريخ القانون المصري القديم ويعالج بعض المشاكل التي تقابلنا في نظام القضاء الفرعوني.

---

(53)E, Revillout, Cours de droit Egyptien Paris 1884.

(54)J, Pirenne, Histoire des Institution et du Droit Prive de I'Ancienne Egypte, Bruxelles 1932- 1935.

جمع هذا المؤلف المواد اللازمة لهذا الموضوع وطبع ثلاثة أجزاء للدولة القديمة فقط، والذي يؤخذ على هذا المؤلف أنه أضاف بعض النصوص التاريخية والدينية التي لا علاقة لها بدراسة القانون.

(55)A. Scharff und E. Seidl, Die Rechts geschichte des alten Aegypten, 1939

وسأحاول في هذا الفصل أن أعرض باختصار لبعض مجموعات القوانين المصرية، وسأحاول أن أبين باختصار كذلك منزلة التشريع المصري القديم في تاريخ القانون وتأثير هذا التشريع على الحضارات القديمة من يونانية ولاتينية.

أما المجموعات فإنه لم يصلنا كثير منها، ولكن الثابت أنه كانت توجد مجموعات منذ أقدم العصور فقد أثبت بعض المؤرخين القدماء أن الملك مينا (حوالي سنة 3200 ق.م) أول ملوك الأسرة الأولى ومؤسس الدولة القديمة سن القوانين. ويقول في ذلك ديودور [56] إن القوانين كانت موضوعة في عصر الملك مينا، ولا غرابة في هذا، فإن الكتابة كانت قد تقدمت في هذا العهد [57] أي أننا نجد في مبدأ عصر الوحدة الأولى القانون المصري قد وضع وسُنَّ.

وليس من شك في أن مثل هذه القوانين قد تكرر سنها في العصور التالية لحكمه، فقد أشير غير مرة في مواضع عدة إلى قوانين قديمة جدًا نذكر منها على سبيل المثال:

1- نصوص الوزير منتوحتب (أحد وزراء الملك سنوسرت الأول حوالي سنة 1970 ق. م) [58].

---

(56) E. Révillout, Cours de droit Egyptien, Paris 1884.

(57) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Privé de l'Ancienne Egypte, Bruxelles 1932-1935.

(58) A. Scharff und E. Seidl, Die Rechts geschichte des alten Aegypten, 1939.

2- تعليمات الملك تحتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة حوالي سنة 1480ق.م) لوزيره رخمي رع التي يشير فيها إلى قوانين قديمة جدًا (59) وفي مقبرة الوزير نفسه نجد رسما لمجموعة قوانين مطوية في أربعين ملفا من الجلد موضوعة أمام الوزير (60) بصفته القاضي الأعظم (ساب سبختي) وهو جالس في دار المحكمة في إحدى الجلسات العلنية. ولا نعلم بالطبع ما كانت تحوي هذه الملفات من مواد قانونية.

أما مجموعات القوانين المصرية التي وصلت إلينا فأهمها قوانين الملك حور محب، وهو موضوع هذا البحث. والملك حور محب (1330 ق.م) هو أول ملوك الأسرة التاسعة عشرة على أحدث الآراء. فلما تولى العرش كان أول ما اهتم به القضاء على الفساد الذي عم البلاد بسبب الثورة الدينية والاضطرابات الداخلية التي بدأت من عهد الملك إخناتون واستمرت إلى أواخر الأسرة الثامنة عشرة.

ولقد كان من أشد عيوب هذا العصر انتشارا تفشي الرشوة بشكل محسوس ظاهر بين محصلي الضرائب وموظفي الحكومة من قضاة وغيرهم لأنهم أمنوا أشراف رؤسائهم على أعمالهم فأسرفوا في استخدام نفوذهم في ابتزاز الأموال من الأهالي فعم الخلل كل الأعمال الحكومية. لذلك كان أول ما قام به حور محب حين تولى العرش القضاء على هذه

(59) Diodor, I, 54.
(60) K. Sethe, Vom Bilde zum Buchstaben.

الحال وعلاج هذه العلل المتفشية فدرس أسباها وعللها وسن قانونا من عدة مواد بعضها خاص بالمرافعات وبعضها الآخر بالعقوبات.

وقد نقشت مواد هذا القانون على لوحة حجرية طولها **5** أمتار وعرضها ثلاثة أمتار بالأقصر (**61**) غير أن مما يؤسف له أن هذه المجموعة وصلت إلينا مهشمة فضاع بذلك أكثر من ثلثي نصوص هذا القانون. وقد وجدنا صورا لهذا القانون في جهات أخرى مثل أبيدوس (**62**) مما يدل على أن الملك تولى نشرها على الشعب في أمكنة مختلفة مخصصة لذلك. غير أن ما وجد من صور هذا القانون كان في حالة أسوأ من لوحة الأقصر. وقد اكتشف هذا القانون ماسبيرو (**63**) سنة **1882** بجوار بوابة حور محب في معبد الكرنك بالأقصر ويبدأ الملك هذه اللوحة بقوله: «سن جلالتي هذا القانون وأصدرته لضمان رفاهية شعبي» فيتضح من هذا صفة الملك حور محب كمصلح وكمشرع. ثم يسرد مواد القانون ثم يقول في آخر اللوحة «نفذوا أوامري التي أصدرها.. نظرًا لما شاهدته من الظلم الصارخ هذه البلاد»

فمن ذلك يظهر أن الغرض من وضعه هذا القانون غيرته على راحة شعبه وعلى تخليصه من الظلم الذي كان واقعًا عليه. وأعجب ما

(61) Weil, Die Veziere, 38-39. Breasted, Ancient Ree???ds. I. p. 255.
(62) K. Sethe, Die Eiusetzung des Veziers unter der 18. Dynastie, (Unters. V.).
(63) P. E. Newberry, The Life of Rekhmara, plate 4.

في هذه الصيغة أنها تذكرنا بالصيغة الحديثة للقوانين إذ تشمل الإصدار والتنفيذ.

مواد القانون (64)

المادة الأولى: **خاصة باستعمال القسوة مع الأهالي عند جمع الضرائب (65) وبمن يسلب ضرائب البيرة والمطابخ الملكية من الأهالي، فمن يوجد معه هذه الضرائب المسلوبة أو المراكب التي تحملها تجدع أنفه وينفى إلى بلدة ثارو (66) سواء أكان الغاصب جنديا في الجيش أم أي رجل آخر.**

المادة الثانية: خاصة بابتزاز مال الأهالي عن الأخشاب المستحقة للملك. (وعقاب من أتى ذلك غير موجود بسبب الكسر).

المادة الثالثة: خاصة بإعفاء الشخص الذي سرقت منه الضرائب المستحقة وهي في طريقها إلى السراي الملكية (ديوان الحكومة). (وعقاب من سرق الضرائب غير موجود بسبب الكسر).

المادة الرابعة: خاصة بسرقة الضريبة المستحقة للحريم الملكي والضريبة التي في شكل هبات للآلهة بواسطة الجنود فكل جندي يرتشي تجدع أنفه وينفى إلى بلدة ثارو.

---

(64) آسف لعدم إمكاني الآن إعطاء ترجمة حرفية لنصوص مواد هذا القانون، وذلك لأني تعهدت بعدم نشرها لحين طبعي الأصل الهيروغليفي.
(65) وكانت الضرائب في ذلك العهد تدفع في شكل مواد أولية كالأخشاب والخضروات والجلود وما أشبه.
(66) وثارو هذه بلدة منعزلة على الحدود الآسيوية بجوار القنطرة.

المادة الخامسة: خاصة بسرقة جمع نبات خاص يدعى «كت» وقد اندثر وكان يستعمل للعلاج. (ويسبب الكسر فإن هذه المادة غير واضحة).

المادة السادسة: خاصة بسوء معاملة العبيد من الذكور والإناث (وتكملة هذه المادة غير واضح بسبب الكسر).

المادة السابعة: خاصة بسرقة ضريبة الجلود فكل جندي أو جابي ضرائب علم عنه أنه دخل المساكن قبل ميعاد حلول الضريبة لأجل سرقة الجلود يحكم عليه بمائة جلدة وبجرحه في خمسة مواضع وتسترجع منه الجلود المسروقة.

المادة الثامنة: خاصة بالمفتشين العديمي الذمة المتواطئين مع محصلي الضرائب التي ينفق منها على الرحلات الملكية.

المادة التاسعة: خاصة بسرقة ضريبة الخضروات (وعقاب من لم يراع نظام جمع الضريبة من الموظفين المختصين غير موجود بسبب الكسر).

المادة العاشرة: خاصة بجمع ضرائب الحبوب (ومعظم نصوص هذه المادة ضائع بسبب الكسر).

المادة الحادية عشرة: خاصة بشروط تعيين القضاة في أنحاء المملكة المصرية.

المادة الثانية عشرة: خاصة للتعليمات اللازمة للقضاة، على سبيل المثال «ليحكموا بالعدل بين الناس» وحذرهم الملك من الاختلاط مع عامة

الشعب وحذرهم من الرشوة قائلًا: «لا تأخذوا أي هدية من أحد وإلا فكيف يمكنكم أن تحكموا بالعدل إذا كنتم أنفسكم جناة على القانون».

المادة الثالثة عشرة: خاصة بترتيب أنواع المحاكم المختلفة (وبالأسف معظم هذه المادة غير واضح بسبب الكسر).

***

من هذا نرى أن المشروع المصري قد وضع نصب عينيه حماية الشعب مع مراعاة الصالح العام، وملحوظ في هذا التشريع أيضًا أن العقوبات البدنية كان لها شأن كبير.

وترينا هذه المواد الناقصة بالإجمال عناية المصريين القدماء بسن القوانين المنظمة لجباية الضرائب وتنظيم المحاكم.

شيء عن القانون الجنائي عند الفراعنة

ذكرنا أن أول مجموعة قانونية معروفة عند الفراعنة هي مجموعة الملك حور محب (67) ورأينا أنها تشمل مواد خاصة بالعقوبات ومواد أخرى خاصة بالمرافعات.

وفضلا عن هذه المجموعة بقيت لنا أوراق بردية ونقوش متعددة ورد فيها ذكر لجرائم مختلفة. وسنذكر هنا الجرائم والعقوبات التي وردت في مجموعة قوانين الملك حور محب وبعض جرائم وعقوبات أخرى من أوراق البردي والنقوش، مرتبة حسب أهميتها ومعرفتنا لها.

أولًا- جريمة الاعتداء على الملك (68)

ميز قدماء المصريين هذه الجريمة عن غيرها من جرائم الاعتداء الأخرى، وقد وصلتنا نصوص تثبت لنا محاولة الاعتداء على حياة الملك، أهمها الشروع في اغتيال حياة الملك بيبي الأول (69) والملك أمنمحات

(67) مجلة «القانون والاقتصاد» العدد الخامس من السنة الحادية عشرة صحيفة 633 وما بعدها.

(68) قارن «قانون العقوبات» المعمول به في مصر لغاية مؤتمر مونتريه مادة 77.

(69) K. Sethe, Urknnden des Alten Reichs , 1932, II, 99, H. Breasted, Ancient Records of Egypt l 142 الملك بيبي الأول هو ثالث ملوك الأسرة السادسة من الدولة القديمة (أي عصر الوحدة الأولى وعاش حوالي سنة 2590 ق.م.

الأول (70) واغتيال حياة الملك أمنمحات الثاني (71) والشروع في اغتيال حياة الملك رمسيس الثالث (72).

ولما كان ما وصل إلينا عن محاولة اغتيال الملك بيبي الأول وكذلك الملك أمنمحات الأول وكذلك عن اغتيال الملك أمنمحات الثاني على غاية من الاختصار بعكس ما نعرفه مفصلا عن حادث محاولة اغتيال الملك رمسيس الثالث، لهذا سنقصر كلامنا عليه.

كان ذلك حوالي سنة **1167** قبل الميلاد وكانت العادة المعروفة في توارث العرش عند الفراعنة أن يؤول العرش للابن الشرعي الأكبر للملك. وكان للملك أن يتخذ فضلًا عن زوجته الشرعية زوجات أخرى ليست لهن هذه الصفة ويعتبر أولاده منهم غير شرعيين.

وكان ابن رمسيس الثالث الشرعي الذي سيخلفه في الملك يدعى «الأمير بنتاور»، وقد علمت الملكة «تي» زوجة الملك رمسيس الثالث الشرعية أنه اعتزم أن يورث عرشه أحد أبنائه غير الشرعيين دون ابنها الأمير «بنتاور»؛ لذلك رغبت في تدبير مؤامرة لاغتيال حياة الملك رمسيس الثالث فاتفقت مع بعض الضباط ونساء بعضهم ومع كبار

---

(70) Grieffith, Zeitschrift fuer Aegyptische Spiache und Altertunskunde, Vol. 34 p. 35 tf. Breasted, Ane, Rocords of Egypt, I, 228 @ISLAMWAY.NET. الملك أمنمحات الأول هو أول ملوك الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (عصر الوحدة الثانية) وعاش حوالي سنة 200 ق.م.

(71) W.G. Waddell, Mpnetho, Bondon 1940, p. 67. الملك أمنمحات الثاني هو ثالث ملوك الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى وعاش حوالي سنة 1938 ق.م.

(72) Lemm, Aegyptische Lesectiicke p. 108, Breasted, Anc, Records, IV P. 210 FF الملك رمسيس الثالث هو ثاني ملوك الأسرة العشرين من الدولة الحديثة (عصر الوحدة الثالثة) وعاش حوالي سنة 1198 ق.م.

موظفي القصر الملكي وعلى رأسهم «بنتاور» ولي العهد على قتل الملك والتخلص منه حتى يخلص الملك لابنها «بنتاور».

إلا أنه قبل تنفيذ المؤامرة عدل أحد أفرادها عن الاشتراك فيها فكان لعدوله الأثر الأكبر في فشلها وافتضاح أمرها؛ فشكلت محكمة من أربعة عشر قاضيا (وكان المتبع في ذاك الوقت أن يجلس للحكم في القضايا الجنائية عدد من القضاة يتراوح بين ستة وثمانية (73) ضمانا لعدالة الحكم، ولو أنه كان للملك بحكم سلطانه الإلهي الحق في إعدامهم دون الرجوع إلى القضاء.

ولكي تأخذ العدالة مجراها لم يكتف بأنه أوصى القضاة بعدم التأثر بأي عامل خارجي عند إصدار أحكامهم على المتآمرين بل تنحى عن حقه في أنه المرجع الأخير في تقرير العقاب كما هو المتبع مادة في القانون الجنائي بخلاف القانون المدني إذ كان الوزير هو المرجع الأخير (74).

وقد أصدرت المحكمة مختلفة فبرأت المتآمر الذي عدل عن الاشتراك في الجريمة وحكمت بإعدام الأمير «بنتاور» (75) ومعظم المتآمرين والمتآمرات (76).

---

(73) E. Seidl, Rechtsgesgeschichte, Ubersetzungen und Abhandlungen zum vorptole- maischen Rechte Aqyptens, in Kritische Vierteljahresschrift fur Gesetzgcb ung und Rochtswissensenschaft p. 228.

(74) تناولنا بحث هذه النقطة بالتفصيل في كتابنا:

Die Inncre Verwaltung; Die Slellung des konigs und des Wesirs im Ramwssidenreich ,

الذي سيظهر قريبًا والذي أشار إليه الأستاذان شارف وزيدل في كتابهما. Die Recht, geschichte des alten Aegypten.

(75) وقد طلب من الأمير «بنتاور» أن ينتحر (قارن ما كان متبعا عند اليونان).

ونحن نرى شبهها كبيرًا بين ما اتخذته المحكمة من تبرئة المتآمر الذي عدل عن الاشتراك في المؤامرة وما يتبعه القانون الحديث حيال «شاهد الملك».

نستنتج من هذه الجريمة التي وصلت إلينا تفاصيلها عدة نتائج على غاية من الأهمية في تاريخ القانون:

معرفة الفراعنة لجريمة الاعتداء على حياة الملك وتفريقهم بينها وبين الجرائم الأخرى، ورأينا أن الملك قد امتنع عن القضاء في هذه الجريمة التي تمسه شخصيا خلافًا لما كان متبعا في الجرائم الأخرى من أنه المرجع الأخير في تقرير العقوبة. وبذلك نرى احتراما وتطبيقا لمبدأ الفصل بين السلطات.

كذلك نرى أن العقاب الذي وقع على المشتركين في المؤامرة هو نفس العقاب الذي كان ينالهم لو أننا طبقنا القانون الجنائي المصري الحالي وهي عقوبة الإعدام (77). وأن المتآمر الذي عدل عن الاشتراك في الجريمة كان جزاء عدوله البراءة. وهذا يشابه في نتيجته العملية ما هو متبع في العصر الحديث (78) إذ أن الذي يعدل عن ارتكاب الجريمة باختياره ومن تلقاء نفسه يعفى من العقاب مع الفارق الفني الضئيل بين البراءة والإعفاء من العقوبة.

---

(76) كما حكمت بقطع آذان وأيدي من سهل للمتآمرين تنفيذ الشروع في المؤامرة دون الاشتراك معهم.

(77) قارن «قانون العقوبات» المعمول به في مصر لغاية مؤتمر مونتريه مادة 77.

(78) قارن «قانون العقوبات» المعمول به في مصر لغاية مؤتمر مونتريه مادة 87.

ثانيًا- جرائم السرقة:

كانت سرقات القبور شائعة في العصر الفرعوني نظرًا لاحتوائها على أشياء نفيسة بل على كل ما هو لازم لحياة الإنسان في العالم الآخر. ومن أهم الأمثلة لهذا النوع من الجرائم ما حدث حوالي سنة 1120 ق.م. من سرقة عدة مقابر لأفراد وموظفين وملوك دفنوا منذ حوالي خمسمائة سنة من تاريخ السرقة (79) ويفهم من تطبيق العقوبة عليهم رغم اندثار أقارب الموتى بعد هذا التاريخ الطويل أن هذه الجريمة كانت تعتبر في حكم ما نسميه نحن الآن «حق النظام العام» فكانت الدولة هي المجني عليها في هذه السرقات باعتبار أنها مخلة بأمن المجتمع وكيانه.

وكان عقاب هذه الجريمة أن يعدم المجرم على الخازوق (80) أو يحبس (يسجن) (81). ومن أمثلة جرائم السرقة أيضًا ما نص عليه في قانون «الملك حور محب» فقد نص في المادة السابعة من مجموعات قوانينه على عقاب سارق ضريبة الجلود: بضربه مائة جلدة وبجرحه في خمسة مواضع (82). ومن أمثلة جرائم السرقة أيضًا ما نص عليه في معاهدة

(79) T. E. peet the Great Tombrobberies of the Twentieth Egyptian Dynasty, Oxford 1930. 2 Volumes.

(80) وكانت هذه هي طريقة الإعدام الشائعة عندهم ومن الغريب أنها كانت موجودة في العصر التركي وآخر ما وصلنا عنها ما وقعه رجال الاحتلال الفرنسي على «سليمان الحلبي» لقتلة «كليبر»

(81) كان الحكم بإعدام السارق على «الخازوق» يوقع على من لمس المومياء وبعقوبة الحبس «السجن» على من سرق ولم يلمس المومياء.

(82) وتسترجع كذلك من السارق الجلود المسروقة. يلاحظ ما هو متبع في القانون الروماني من أن جريمة السرقة لا يعاقب عليها إلا إذا طلب أصحاب المسروقات اتخاذ الإجراءات القانونية

التحالف التي عقدت بين الملك رمسيس الثاني وبين ملك الحيثيين: «إذا ارتكب أحد رعايا الطرفين سرقة وجب نفيه وتسليمه لدولته » (83) فهذا النص الصغير الصريح يدل على أن النفي كان محتما على كل فرد من رعية أحد المتحالفين إذا ما ترك وطنه لسبب جنائي (84).

ثالثا- جريمة اختلاس الأموال الأميرية:

عقابها واضح في قانون الملك «حور محب» وهو جدع أنف المختلس ونفيه إلى بلدة «ثارو» على الحدود الشمالية الشرقية.. راجع المادة الأولى من مجموعات قوانين الملك «حور محب».

رابعًا- جريمة الرشوة

من جرائم الرشوة ما نص عليه في قانون الملك «حور محب» فقد نص في المادة الرابعة من مجموعات قوانينه على عقاب المرتشي بالنفي إلى الحدود وجدع أنفه.

(راجع بالتفصيل كتاب الأستاذ علي بك بدوي: «أبحاث التاريخ العام للقانون» الجزء الأول سنة 1936 صحيفة 123. وكتاب الدكتور بدر: القانون الروماني 1937.

Breasted, Ancient Records III, S 392 @ ISLAMWAY.NET. (83)

(84) وهذا يذكرنا في القانون الحديث بنظرية « تسليم المجرمين ».

خامسًا- جريمة شهادة الزور

يختلف العقاب فيها باختلاف أهمية الشهادة وعقوبتها تتراوح بين حبس ونفي (85)

سادسًا- جريمة هتك العرض

يختلف العقاب في هذه الجريمة باختلاف حالة السيدة ومكانتها في الهيئة الاجتماعية متزوجة أو غير متزوجة، وباختلاف حالة الجاني إن كان من الخدم أو الأقارب أو الاتباع وهكذا (86) وهناك جرائم أخرى خلاف هذه الجرائم السابقة الذكر كالتزوير في المستندات الرسمية (87) ولكنها غير واضحة لتلف في النصوص التي وصلتنا عنها.

يتضح لنا مما ذكرنا ما كان عليه القانون الجنائي عند الفراعنة من رقي وما كانوا يتخذونه في إقامة العدل بين الناس.

---

(85) E. Seidl,_Rechtsgeschichte, Ubersetzungen und Abh., in Krit. Vieiteljah., p. 228 ff.

(86) Cerny, Papyrus Salt, Journal of tg Arch,., XV, 243, ff.

(87) Gardiner, Inscription of Mes, in Sethe, Untersuchungen, IV, 3 ff.

دور العدالة في مصر القديمة

1ـ المحاكم الوطنية

> تقديس المصري للعدل ظاهر في النصوص والأساطير المخلفة عن عصور التاريخ المصري القديم، ولم تقل عناية الشعب والقائمين على شؤونه بهذه الناحية الاجتماعية عن عنايتهم بعباداتهم وتقديسهم لآلهتهم، وذلك لأن العدل أساس الملك، والعدالة شرط لابد منه إذا أريد للدولة الحياة وللأمة البقاء.

فلا عجب إذن أن نرى للعدل إلاهة تدعى «معات» تهيمن على ممثليها في الأرض كالملك والوزراء والقضاة وسائر الأفراد. فالمعبودة "معات" هي التي ينتسب إليها القاضي ويدعى كاهنها، و«معات» هذه هي التي كانت تتحلى بتمثالها الصغير القلادة التي يلبسها القاضي، حول عنقه عند النظر في القضايا، ولعلها في ذلك الوقت كانت تشبه صورة مليك البلاد باعتباره حاميا للقضاء تتوج كل قاعة من قاعات العدل في وقتنا الحاضر ليطمئن المظلوم ويرهب الظالم.

فقد ورد في قصة بردية (الفلاح) أن موظفا حكوميا كبيرًا في جهة الفيوم نازع فلاحا صغيرًا على ملكية منقول صغير فقدمت القضية إلى

المحكمة فأصدرت الحكم في مصلحة الفلاح الصغير ولم يستطع الموظف الكبير استغلال سلطة وظيفته.

ولم تقتصر المساواة على شيوعها بين الكبير والصغير بل شملت ما هو أهم وأعظم من هذا فقد ثبت من أوراق بردية (أبوت) أن جماعة من الشعب وموظفي القصر الملكي شرعوا في قتل رمسيس الثالث فرعون مصر ولكنه حرصًا منه على العدل كتب إلى قضائه قائلًا ما ترجمته «إن هؤلاء متهمون فحققوا في أمرهم بروح العدل».

ومما يدل كذلك على عظم اهتمام الدولة الفرعونية بتقديس العدل وسرعة البت في القضايا والشكاوى وعدم المحاباة ما جاء في وثيقة تاريخية عن نظام القضاء بمقبرة «رخمي رع» أحد وزراء الملك تحتمس الثالث؛ فقد ورد في هذه الوثيقة بيان الاختصاصات والمهام القضائية التي عهد فيها الملك إلى وزيره عند تعيينه رئيسا للوزراء ووزيرا للعدل فقد كان الوزير هو القاضي الأول في الجلسة ومعه قضاة آخرون وكان يحمل في عنقه صورة المعبودة «معات» رمز العدالة.

وكانت الهيئة تسمع المتقاضين في جلسة علنية واحدًا واحدًا ولا تسمح بسماع متأخر قبل متقدم. وكان يقف في الجلسة كتبة لتسجيل كل ما يدور بشأن القضايا وموظفون إداريون لتنظيم صفوف المتقاضين حسبما هو وارد في جدول الجلسة.

ولم يكن القانون المصري القديم يبيح الإطالة في القضايا والشكاوي بل يميل إلى الفصل فيها بسرعة فإن تقدمت للوزير على سبيل المثال شكوى عن أرض بعيدة عن العاصمة أرسل مندوبًا لتحقيقها في خلال شهرين وإن كانت قريبة من العاصمة حققت في خلال ثلاثة أيام طبقا للقانون. وسجل الوزير «رخمي رع» أسمى مظهر للعدالة بمقبرته في طيبة فإنه كان يجول بين الشعب في الصباح الباكر ليسمع شكاوى الشاكين على اختلاف مراتبهم لكي يرفع الظلم عن المظلومين الذين لا يستطيعون الوصول إليه أو إلى مجلس القضاء لفقرهم أو لجهلهم بالقانون.

وكان يكلف الكتبة الذين بصحبته أن يكتبوا ما يمليه عليهم الشاكون الأميون.

فمن هذه الأمثلة الموجودة يتبين مقدار احترام أسلافنا المصريين للقانون ومحبتهم للعدالة والدقة مع السرعة في تنفيذ القانون بما يكفل الطمأنينة لجميع أفراد الشعب على السواء.

ولتعميم العدالة في البلاد أنشئت في مصر القديمة محاكم من نوعين، مدنية وجنائية، وكان اختصاص المحاكم المدنية الفصل في المنازعات العقارية من انتقال ملكية أو بيع أو شراء أو هبة أو وصية أو ميراث أو إيجاد وما إلى ذلك، وكانت المحاكم المدنية على ثلاث درجات:

1- محاكم كانت تعقد في القرى أو المدن الصغيرة، وكان يطلق عليها مادة في اللغة المصرية القديمة اسم «جاجات» بمعنى مجالس قضائية،

وكان القضاة ينتخبون من الطبقة الخاصة من الموظفين المعروفين باسم «سرو» أي «الكبار» وكانت تعقد جلسات هذه المحاكم بإشراف حاكم القرية.

2- الثانية محاكم عواصم الأقاليم، أو بالمصرية القديمة «حات ور» أي البيت الكبير وكانت تنظر في القضايا التي تشبه تلك التي تنظر أمام محاكم الدرجة الأولى وينتخب قضاتها من طبقة كبار الموظفين السابقة. وكانت تعقد جلساتها برياسة حاكم الإقليم ووزير العدل هو الذي كان يعين قضاة محاكم الدرجتين الأولى والثانية.

3- الثالثة وهي محاكم استئنافية، تنظر أمامها قضايا محاكم الدرجة الأولى والثانية وتسمى «سوني حات ور» ويختار قضاتها الستة من أعضاء مجلس العشرة، وكان يرأسها الوزير بصفته وزيرا للعدل، والملك هو الذي يعيِّن قضاة هذه المحاكم الاستئنافية.

ومما هو جدير بالذكر أن القاضي كان يعرف في المصرية القديمة باسم «ساب» أي المصلح إشارة إلى مهمة القاضي والغرض من القضاء، وهذا النوع من المحاكم لم يلازم الشعب المصري القديم في جميع عصوره، بل تحول مع مرور الزمن؛ ففي عصر الوحدة الثانية (الدولة الوسطى) ظهر نوع آخر يعرف باسم «قنبت» واستمر في عصر الوحدة الثالثة (الدولة الحديثة) وامتاز بأن يجلس للحكم في القضايا الجنائية عدد من القضاة يتراوح بين ستة وثمانية. وكانت المحاكم الاستئنافية لهذا النوع من المحاكم تسمى «قنبت عا» واستمر الحال على هذا المنوال حتى عصر

البطالمة فبقيت هذه المحاكم الوطنية لتطبيق القانون المصري في التراع بين المصريين والفصل في قضاياهم وسميت باليونانية «محاكم الـــ Laocritae

2ـ المحاكم المختلطة

وقد لا يعرف إلا قليل أنه كان في مصر القديمة ما يسمى بالمحاكم المختلطة أنشئت لظروف خاصة وزالت بزوال تلك الظروف، فقد كانت تطبق على الإغريق القوانين الإغريقية في محاكم إغريقية تسمى محاكم الـــ Chremaitistae إذا كان فريقا التراع منهم، وهي تشبه المحاكم القنصلية، ولكثرة نزوح الإغريق إلى مصر بعد غزو الإسكندر الأكبر لمصر سنة 332 قبل الميلاد ثم قيام أسرة ملكية جديدة للبطالمة.

ولما زاد عدد الأجانب الذين وفدوا على مصر وكثرت المداولات التجارية مع وجود اختلاف بين القوانين المصرية المحلية والإغريقية ونشوء المنازعات بين الأجانب والمصريين واختلاف اللغة الإغريقية عن المصرية القديمة وضرورة الفصل في هذه المنازعات، أنشئت محاكم جديدة عرفت باسم « Koinodikion» أي محاكم مختلطة ابتدائية في الفيوم أو الإسكندرية وطيبة ومحكمة استئناف مختلطة في الإسكندرية (مقر الملك) تضم عددًا من القضاة اليونان أو المقدونيين والمصريين. ولما انقضى الغرض الذي من أجله أنشئت هذه المحاكم زالت بزواله. وفي الوقت عينه

تقلص حكم الدولة اليونانية المعروفة بدولة البطالمة وحلت الإمبراطورية الرومانية محله.

وكان يشمل اختصاص محاكم الـــ **Koinodikion** هذه القضاء المدني والقضاء الجنائي ونذكر بهذه المناسبة أن خلافًا نشب بين شخص يدعى **Marres** وشخصين آخرين على تقسيم كرم. وبينما كان عمال ماريس هذا يشتغلون في الكرم جاء شخص رابع وطردهم ولكن الشخصين أطلقا أغنامهما في الكرم فأتلفت الزراعة عمدًا.

فقدم ماريس شكوى لرجال البوليس يطلب تقسيم الكرم وتعويضه عن الخسائر التي تسببا فيه مع الشخص الرابع ولمعاقبة الشخص الرابع؛ فأشر قائد البوليس على الشكوى بأنه في حالة العجز عن التوفيق بينهم تحال الشكوى على المحكمة المختلطة.

الفصل الرابع

بحوث أثرية

1- منارة الإسكندرية

2- سرابيوم «الإسكندرية»

3- مصر العتيقة والحصن الروماني

4- الأثر الدنيوي في الفن القبطي

5- أدوات زينة المرأة في العصر القبطي

منارة الإسكندرية

كان لأسطول بطلميوس الأول الملقب باليونانية (سوتر) وبالمصرية (نج) أي المخلص، السيادة البحرية التامة على البحر المتوسط، فتقدمت المدنية التجارية بالإسكندرية تقدما عظيمًا خاصة طول مدة حكمه كوال (**323– 305** ق.م)

أو كملك (**305– 282** ق.م) وقد بذل جهودا جبارة لضمان تقدم البلاد تجاريا ورفع مستواها أدبيًا وعلميا، فقام بكثير من المشروعات العمرانية الخالدة كبنائه منارة الإسكندرية الشهيرة لهداية السفن على جزيرة (فاروس) عند مدخل الميناء، وهي تعتبر أول منارة عرفها العالم القديم، كما أنه أكبر منارة حتى يومنا هذا وهي تعد إحدى عجائب العالم السبع.

وقد جرت عادة بعض المؤرخين إلى نسبة بنائها إلى الملك بطليموس الثاني الملقب (فيلادلفوس) إلا أن الحقيقة العلمية لا تقرهم على هذا الرأي، فقد ثبت أخيرًا أن مشيدها الحقيقي هو بطليموس الأول الذي أسند مهمة الإشراف على بنائها للمنهدس (اليوناني **Sostratus**) الذي نشأ في بلده (كنيدوس **Cnidos**) إحدى البلاد اليونانية ثم أتيحت له الفرصة فانضم إلى حاشية بطليموس الأول. وقد ظلت هذه المنارة قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادي حيث هدمها زلزال شديد

عام **1307**م. ومن حسن الحظ أننا نجد وصفا مستفيضا لهذه المنارة في مؤلفات كثيرين من المؤلفين المتقدمين أمثال (سترابون) و(يوسيفوس) و(ابن الصائغ) و(ياقوت) كما وصلتنا أيضًا صورة لهذه المنارة على بعض قطع من العملة الرومانية التي عثر عليها أخيرًا.

ومن الأوصاف التي وردت في تلك الكتب وعلى بعض قطع النقود نستطيع أن نقول إن هذه المنارة كانت مشيدة في فناء مربع يحيط به سور عظيم من جهاته الأربع وكان خارج هذا السور رصيف يسير عليه الناس. أما المنارة نفسها فكان ارتفاعها مائة مترا، وتتكون من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض، فكانت السفلى مربعة الأضلاع والوسطى مثمنة، أما الطبقة العليا فكانت مستديرة ويعلوها تمثال رجل من النحاس يحمل مصباحا. وقد أطلق على هذه المنارة اسم الجزيرة التي شيدت عليها، أعني (فاروس) فأصبح هذا اللفظ يدل في اليونانية وكثير من اللغات الهندية الأوربية على معنى (منار) والذي أصبح في العربية (فنار) وفي الفرنسية (فار **Phare**) وفي الإنجليزية (فاروس **Pharos**). ويعتبر علم الآثار هذه المنارة أقدم بناء من هذا النوع عرفه العالم، وأن هذا البناء أصبح فيما بعد مثالًا يُحتذى عند بناء جميع منارات العالم قديمًا وحديثًا، بل تحفة فنية من تحف فن العمارة والزخرفة والهندسة التي ترجع إلى ذلك العصر السحيق.

سرابيوم .. معبد الإسكندرية

منذ أعوام قلائل اكتشفت رجال متحف بلدية الإسكندرية بجوار عمود السواري آثارًا ترجع إلى عهد الملك بطليموس الثالث، وقد نوَّهت بها بعض الصحف يومئذ وذكرت أن بينها لوحات ذهبية تدل على أن بطليموس الثالث هو المنشئ لسرابيوم الإسكندرية.

غير أنه قد اتضح من بحث المراجع الأثرية والأدلة التاريخية أن منشئ سرابيوم الإسكندرية هو بطليموس الأول لا الثالث.

ولقد كان الإسكندر الأكبر وحكام البطالمة يميلون إلى مهادنة المصريين ومجاملتهم من الوجهة الدينية. ولذلك حذوا حذو ملوك الفراعنة فكانوا يزورون الآلهة المصرية في معابدها، واتخذوا لأنفسهم الألقاب المصرية التي ترجع إلى تاريخ معبودات مصرية قديمة كاللقب الحوريسي نسبة إلى الإله حورس (إله السماء)، الذي كانوا يعتقدون أنه يحمي حامل لقبه، بل يعتبر من سلالته. واللقب صارع نسبة إلى الآلة رع (إله الشمس) ظنا منهم أن المسمى به يعتبر ابنا للإله رع.

ولم يكتف بطليموس الأول باستمالة المصريين وإرضاء كهنتهم بمثل هذه الطرق، بل فكر في طريقة أخرى لإيجاد عبادة مشتركة يونانية مصرية تربط الشعبين.

فغير اسم المعبود المصري (العجل آبيس) بتسمية مصرية يونانية (أو سرحابي، أي العجل آبيس المنوفي) بسرابيس. وعبده المصريون في شكل الآلهة المصرية أزوريس أو العجل آبيس أو الإله أنوبيس. واليونانيون في شكل الإله اليوناني هادس (إله الآخرة) أو إسكالبيوس (إله الشفاء) أو زيوس. وبذلك أصبح كل من الشعبين لا يعتبر هذه الديانة رمزا لديانة جديدة.

فكلف بطليموس الأول المهندس اليوناني **Parmenissus** بارمنيسوس إنشاء معبد الإله سرابيس بالإسكندرية فأقامه مكان عمود السواري الحالي، وأطلق عليه اسم السرابيوم وكان هذا المعبد أهم مركز لعبادة هذا الإله في عصر البطالمة.

وقد أضاف أيضًا بطليموس الأول هيكلا جديدًا بسرابيوم منف (88) للمعبود العجل آبيس، وهو أحد أشكال الإله سرابيس على الطريقة المصرية كما تقدم. ويرجع تاريخ سرابيوم منف إلى الدولة الحديثة أو إلى ما قبل هذه الدولة في بعض الآراء. ولا يمكن القول بأن بطليموس الأول هو الذي أنشأ سرابيوم منف بناء على التعديل الذي أجراه فيه (89).

---

(88) سرابيوم منف عبارة عن هياكل متصلة بمحاريب لدفن ما يموت من عجول آبيس وكانت توضع جثث العجول في توابيت وتدفن بهذه المحاريب. وكانت وفاة العجل آبيس تعتبر حادثا تهتز له البلاد كلها.
وعندما يكون العجل أبيس على قيد اليحاة كان يعيش في مكان بجوار هيكل بتاح على مسافة أربعة أميال تقريبا داخل بقعة منزرعة من الوادي تدعى « آبيوم ».
وعلاقة الإله بتاح بالعجل آبيس هو أن المصريين في عصر الدولة الحديثة كانوا يعتقدون أن روح الإله بتاح قد تقمصت العجل آبيس.

(89) وفوق أهمية ما شيده بطليموس الأول في سرابيوم منف من الوجهة الدينية تقوم له أهمية

كما أن وجود ألواح ذهبية باسم بطليموس الثالث بسرابيوم الإسكندرية منقوش عليها أنه أهدى إلى سرابيس المعبد والحرم المقدس، لا يدل دلالة قاطعة على إنشاء هذا السرابيوم، بل يستنتج من النقوش فقط إنه اهتم بتوسيع هذا المعبد أو بتجديد بنائه كما حدث في سرابيوم منف في عهد بطليموس الأول لاسيما أن السرابيوم يشمل عدة مبان.

وقد وجد علماء الآثار ألواحا ذهبية ببلدة كانوب (بجوار أبي قير) باسم بطليموس الثالث منقوشا عليها أنه أهدى هو وزوجته برنيكا المعبد للإله أزوريس. فالمقصود هنا أن الأهداف ينصب على ما أضيف بمعرفتهما بهذا المعبد. وتوجد إحدى هذه الألواح بالمتحف البريطاني بلندن.

مما تقدم نستطيع القول بأن بطليموس الأول لا الثالث أنشأ سرابيوم الإسكندرية (**90**)

فنية إذ أنه أول بناء في مصر معروف حتى الآن ظهرت فيه الأعمدة اليونانية المسماة « كورني ».

(90) وقد وصلت درجة عبادة الإله سرابيس إلى حد جعل جميع المصريين يعبدونه، وكذلك يونانيو مصر إذ أصبح إله الدولة. وفي المسائل القضائية ذكر اسمه في القسم.
كما أن عبادته انتشرت من الإسكندرية إلى البلاد الإغريقية ثم فيما بعد إلى الدولة الرومانية.

مصر العتيقة منذ عصر

الملك مينا إلى عصر الفاروق والحصن الروماني

تقع مصر العتيقة على الضفة الشرقية من النيل جنوبي القاهرة ابتداء من فم الخليج «رأس الدلتا»، وكان يطلق عليها في العصور الفرعونية اسم «خري عحا» أي ميدان الحرب، ذلك لأنه نشبت بالقرب منها حروب بين أهل الشمال «الوجه البحري»

وبين أهل الجنوب «الوجه القبلي» (91) وربما أطلق عليها اسم «كمت» أي «الأرض السوداء» لخصوبة تربتها. وكان يطلق هذا الاسم «كمت» على القطر عامة، كما هو الحال حين يطلق الآن اسم مصر ويراد به «القاهرة»، أو حيز يطلق ويراد به على التعميم القطر المصري، إلا أن تسمية «خري عحا» أصبحت أكثر شيوعا وانتشارا من التسمية الثانية حتى عصر البطالمة. فعلى سبيل المثال نذكر أن نصوص عصر الوحدة الأولى «الدولة القديمة» المكتوبة على حجر بالرموز ذكرت عند الكلام على الملك «نفراير كارع» نحو سن 2730 قبل الميلاد كلمة «خري عحا»، كما ذكرت أيضًا في نصوص الأهرام في فقرة (1350)،

---

(91) ولتخليد ذكرى هذه الموقعة التي كانت خيرا وبركة على سكان وادي النيل وشعب مصر نقيت هذه التسمية «ميدان الحرب» حية حتى عصر البطالمة والفضل في ذلك يرجع إلى العقيدة القائلة بأن تلك المعركة التي دارت رحاها في هذا المكان إنما هي معركة إله مصر العليا (حورس) وإله مصر السفلى (ست) وانتصار الإله (حورس) على الإله (ست).

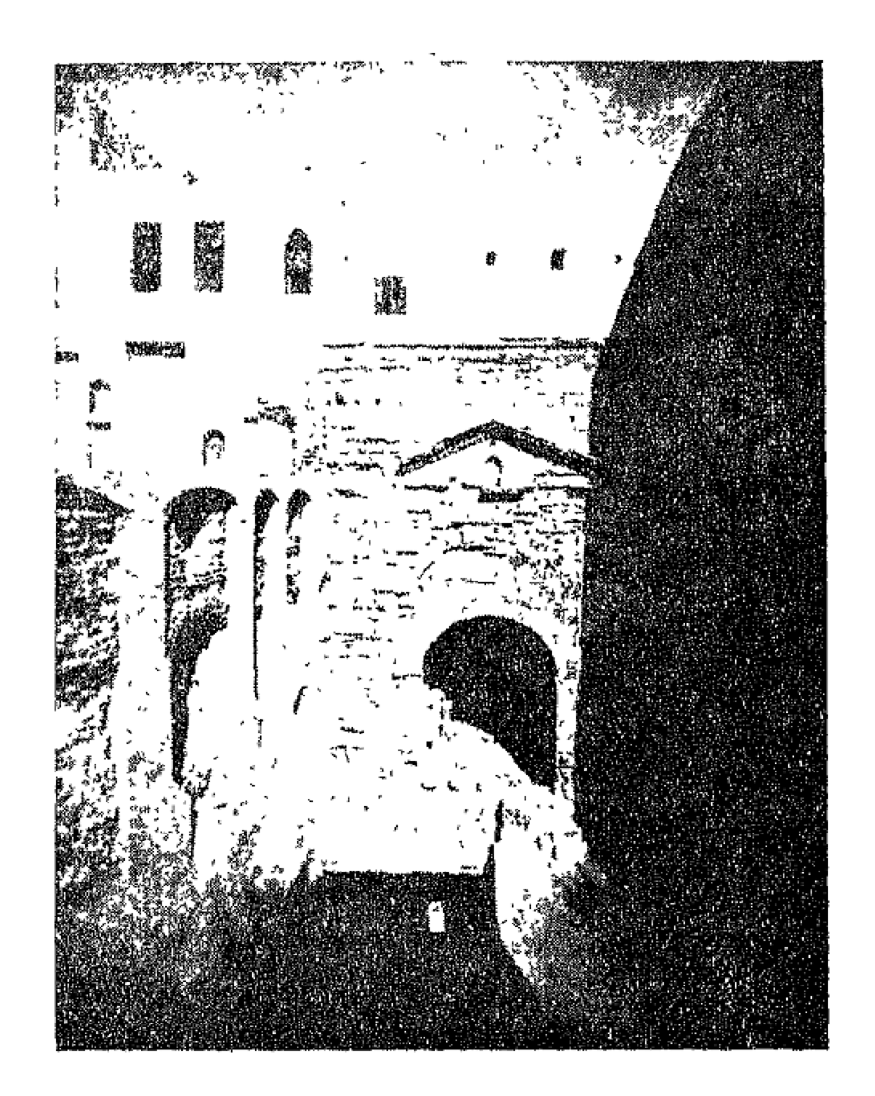
وكذلك في عصر الوحدة الثانية «الدولة الوسطى» وعصر الوحدة الثالثة «الدولة الحديثة» في النصوص المكتوبة على لوحة أبي الهول، وفي مقبرة الملك «سيتي الأول»، وفي العصور المتأخرة بلوحة «بعنخي» عند التنويه بأنه زار هذه البلدة في طريقة من منف إلى عين شمس.

وقبل أن تصبح مصر ولاية رومانية عبر عن «مصر العتيقة» باسم «بابليون مصر» كما هو وارد في النصوص اليونانية والقبطية، وهي تسمية أكادية «أشورية» بمعنى «باب الله» أي دار أمان، واتخذت فيما بعد عاصمة للرومان. وهناك من يرى أن معنى هذه التسمية «باب عين شمس».

أما بعد الفتح العربي فقد أطلق عليها اسم «الفسطاط»، وكان قصد الرومان والعرب ومن قبلهم من هذه التسمية واحدا، كما أن بعض الكتاب العرب أطلقوا عليها اسم «قصر الشمع»، وهي تسمية محرفة عن كلمة «كمت» إحدى التسميتين الفرعونيتين مضافا إليها كلمة «قصر» ومن الجائز أن تكون لفظة «قصر» أطلقت على بناء داخل الحصن، إذ هي للقصر أقرب منها للحصن، وسميت بعد ذلك حتى وقتنا هذا باسم «مصر العتيقة». ويستنتج من اختلاف هذه الأسماء لتلك المنطقة أن أدوارا تاريخية متشابهة قد مرت بها، وبالرغم من كثرة العصور التي مرت بها واستدعت إعادة تشييدها، نظرا لتتابع الحروب في فترات مختلفة. فإن موقعها الجغرافي الحالي يكاد يكون في موقعها الأصلي منذ العصر الأول مع امتداد إلى جهة الشمال.

***

كانت «مصر العتيقة» في أغلب العصور المتقدمة عاصمة البلاد ولا تزال، إذ أن القاهرة عاصمة الملك الحالية تقع شماليها، كما أن سراي القبة الحالية التي اختيرت في العهد الحاضر مقرا للملك تقع أيضًا في شمال القاهرة وكذلك مصر العتيقة تقع شمالي مدينة «إنبوحدج» (الجدار الأبيض أو منف) العاصمة الفرعونية الأولى لمصر حينما وحدت في عهد الملك مينا «نعرمر» حوالي سنة **3200** قبل الميلاد. ويرجع السبب في اختيار «مصر العتيقة» عاصمة للبلاد وقوعها عند رأس الدلتا، ولأنها تقع أيضًا عند أول الصحراء الشرقية، ولها من هذه الناحية سيطرة حربية، كما أنها تقع على النيل، فهي ميناء نهري عظيم استخدم ولا يزال يستخدم في نقل الحبوب وغيرها. وكان السفر منها إلى جهات القطر المصري شمالا وجنوبا سهلا يساعد الحكومات على الإشراف الإداري مساعدة جدية فعالة، فهي لذلك مركز مهم من الوجهة البحرية سواء التجارية منها أو الحربية. وقد كانت هذه المنطقة في جميع العصور موضوع اهتمام الحكام والملوك. وأهم ما بقي فيها من مخلفات تلك العصور هو:

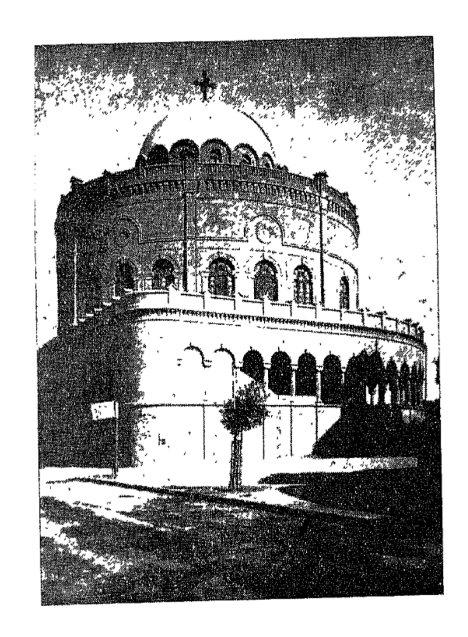


شكل 1: **الباب النيلي بين البرجين الجنوبيين**

(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الأول إلى المتحف القبطي)

أولا: **حصن بابليون**، شيده الفرس في عهد «قمبيز» وجدده الرومان وجعلوه رمزا لحضارتهم، ثم أضافوا إليه تعديلات في عهد الإمبراطور

«أغسطس» ثم «تراجان» من بعده ثم من خلفهما من الأباطرة حيث رابطت فيه حامية كان الغرض منها تحقيق الهدف الحربي والسيادة التجارية، ولا سيما أنه قد مر أكثر من أربعمائة عام من تأسيسه وهو باق دون صيانة أو عناية بأمره. وذلك نتيجة انتقال العاصمة المصرية إلى الوجه البحري، ثم من هذه المنطقة إلى الإسكندرية في عهد الإسكندر الأكبر ومن خلفه من البطالمة، عدا ما استتبع ذلك من تهدم بعض أجزاء منه، مما جعله في حاجة إلى الترميم والإصلاح. وعلى الرغم من أن بعض العلماء خالفوا هذا الرأي. وقالوا بأن تراجان هو الذي أنشأ هذا الحصن في القرن الثاني الميلادي فإنا لا نميل إلى الأخذ بهذا القول، ذلك بأن الحقيقة الثابتة تدل على أن ديودور الصقلي عندما كتب تاريخه عن مصر حوالي سنة **50** قبل الميلاد

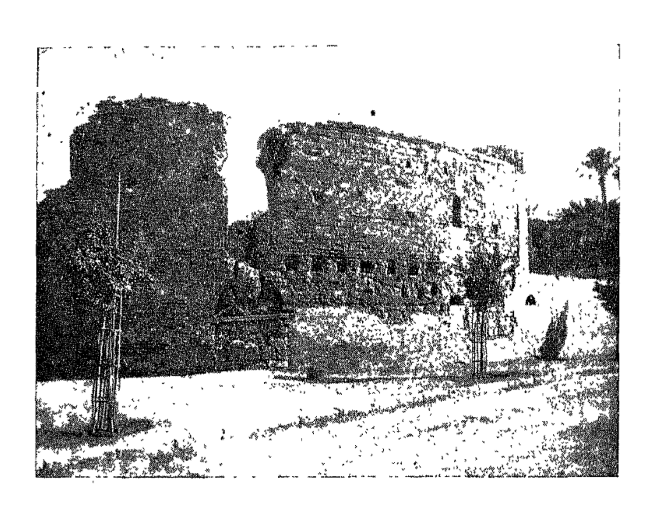


شكل 2: **البرج القائمة عليه كنيسة مارجرجس**

(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الأول إلى المتحف القبطي تبين حالة الحصن قبل ترميمه)

ذكر «بابليون»، كما أن إسترابون الإغريقي عند ما زار مصر سنة 25 ق.م. أي قبل عهد تراجان بما يقرب من مائتين وثلاثين عاما قال إنه «رأى في عين شمس المنازل العظيمة التي كان يسكنها الكهنة الذين درسوا الفلسفة والفلك، وإن من يسر إلى عين شمس في النيل متجها إلى الجنوب يعص إلى بابليون وهو موقع حصين».

ولا نزال نرى بعض أبراج هذا الحصن حول جدران مباني المتحف القبطي، فإذا ما تأملنا جدرانه الظاهرة من الخارج تبين لنا أنها على نمط البناء الروماني العادي وأنها ذات خمسة مداميك من الحجر الجيري الأبيض يتلوها ثلاثة مداميك من الطوب الأحمر. وأغلب أحجار هذا النوع مأخوذ من مبان فرعونية لم تزل على بعضها نقوش هيروغليفية.



شكل 3: **البرج الغربي القائم في حديقة المتحف القبطي**

(عن صورة مهداة من جلالة الملك فاروق الأول إلى المتحف القبطي تبين حالة البرج قبل ترميمه)

ونرى أحد الجدران من الجنوب «الجهة القبلية» عبارة عن برجين كبيرين مستديرين يبلغ ارتفاع كل منهما نحو عشرين مترا، وبينهما أحد أبواب الحصن (شكل **1**)، وعلى أحد هذين البرجين «كنيسة المعلقة الأثرية»، واكتشف في أطلال هذين البرجين نسر روماني ناشر جناحيه.

وفي الجهة الغربية برجان آخران كبيران بينهما مدخل المتحف القبطي، وأحد هذين البرجين مشغول بكنيسة مارجرجس الروماني (شكل **2**). والآخر في حديقة المتحف (شكل **3**). والأمل كبير في أن تظهر الحفائر المقبلة كشف بوابة تربط بين البرجين على رصيف الميناء النهري القديم إذ أن النيل قديما كان يمر بجوار جدران هذا الجزء من الحصن. وكنت منطقة الحصن على ضفة النيل حتى تأسيس الفسطاط.

كل هذا يدل دلالة واضحة على ما كان عليه هذا الحصن من مناعة تفوق مناعة الحصون التي شادها العلم الحديث، وعلى دقة بناء هذا الحصن، فقد بقي حافظا شكله القديم مع أنه مر ما يربو على ألفي سنة على بنائه الذي تبلغ مساحته حوالي**60** فدانا.

ثانيا: **الكنائس الأثرية**، وهذه الكنائس التي داخل الحصن الروماني هي: المعلقة، وأبوسرجة، وقصرية الريحان، ومارجرجس المصري، ومارجرجس الروماني، وأنبا شنودة، ومارمينا، والست بربارة.

ثالثا: **جامع عمر**، وهو أقدم جامع بني بالديار المصرية أسسه عمرو بن العاص عقب افتتاح العرب لمصر، نحو سنة **640** ميلادية أي بعد

استيلائهم على الحصن الروماني، وقد محت الإصلاحات الكثيرة التي أجريت بالجامع قبل عهد صلاح الدين، كثيرا من المباني الأولى التي كان يتألف منها الجامع في عهد عمرو بن العاص. وقد تجلى في هذا الجامع فن العمارة والتصميم في العصور التالية لعهده.

الأثر الدنيوي في الفن القبطي

من الأمور المتفق عليها حتى العصر الحاضر بين علماء الآثار والمؤرخين أن الفن القبطي إنما هو فن ديني مسيحي محض يعبر عن فن الأديرة والكنائس، مؤثراته دينية، كما أن أغراضه دينية أيضًا، بمعنى أنه لم يتأثر بمؤثرات دنيوية، وإنه لم يرم إلى أغراض دنيوية (مدنية).

ويبدأ هذا الفن القبطي أو الفن البيزنطي في نظر هؤلاء العلماء منذ سنة 395 ميلادية وقت أن أصبحت الديانة المسيحية دينا رسميا لمصر، ويستمر حتى سنة 640 ميلادية، وهو وقت دخول العرب مصر.

ولكن إذا رجعنا إلى أصل كلمة قبطي وجدنا أنها في معناها ترادف كلمة مصري سواء بسواء، بمعنى أن جميع سكان وادي النيل كان يطلق عليهم قبل غزو الإسكندر الأكبر لمصر بمدة طويلة اللفظ اليوناني «ايجبتيوس» (92) الذي حرف بعد ذلك إلى لفظ قبطي.

وهذا يقطع بأن كلمة قبطي لا علاقة لها إطلاقا بالنزعة الدينية، بل كان لفظها يستعمل قبل دخول المسيحية مصر وفي عهد المسيحية وبعدها.

---

(92) وبقي لفظ Egypt في اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والإيطالية اسما لمصرنا العزيزة حتى اليوم

نخرج من هذا بنتيجة مهمة وهي أن الفن القبطي كان فنا مصريا قبل أن يكون فنا دينيا كما هو الرأي الشائع حتى الآن.

ومجرد إعادة النظر في الآثار القبطية الموجودة بالمتحف القبطي، وفي باقي المتاحف المصرية، وكذلك في مختلف متاحف أوربا وأمريكا، وفي الأسباب التي استند عليا العلماء في رأيهم السابق، وفي ما قام به العلماء من حفريات، يدلنا على إنهم مخطئون فيما يذهبون إليه، فقد خضع الفن القبطي كغيره من سائر الفنون لمؤثرات البيئة التي نشأ فيها وهذه المؤثرات منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها.

فمثلا وجد في كثير من المقابر والمباني المدنية آثار بغيضة إلى الدين المسيحي والمتدينين به، فالمتحف القبطي زاخر بصور العراة وبأدوات الزينة من مكاحل وأمشاط وحلي السيدات من ذلك الخلاخيل والأساور المحلاة برأس الثعبان (وهي العادة الفرعونية القديمة والمنتشرة حتى الآن) وما إلى الخلاخيل من العقود والخواتم التي على شكل زهرة اللوتس أو المحلاة بعلامة إيب الفرعونية (أي القلب) والحلقات الذهبية التي على شكل عنقود العنب، والثياب المدنية المزركشة والمزخرفة بزخرفة فرعونية كالعجل المجنح أو علامة عنخ الفرعونية (أي الحياة) وهي بلا شك من آثار الحضارة المصرية الفرعونية.

كذلك ترك لنا الفن القبطي آثارا منزلية كثيرة عليها بعض مناظر لأشخاص عراة أو لراقصين أو راقصات، كما أن بعضها يشبه ما وجد في

مقابر الفراعنة كالأواني الفخارية أو بعض الأواني المعدنية، كالإناء الذي يشابه العلامة الفرعونية (حسى) أي ممدوح، أو الملعقة الصدفية التي لها يد من حديد وتنتهي بشوكة وتشبه في شكلها تلك التي وجدت أخيرا في حفائر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بجهة حلوان وهي مصنوعة من العاج ويرجع تاريخها إلى أوائل عصر وحدة مصر الأولى تحت عرش ملك واحد.

كما أن البعض الآخر من الآثار القبطية عليه مناظر نيل مصر، من طيور، وأسماك أو نبات البردي، أو التمساح أو المراكب، والنيل بلا شك قوام حياة مصر في كل عصورها، ولا علاقة لكل هذا بالدين المسيحي لا من قريب أو بعيد.

كما أن هناك آثارا عديدة من العصر القبطي لمصريين لم تكن المسيحية ديانتهم. وقد استوحى هذا الفريق من المصريين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد في فنهم مؤثرات غير مسيحية، وهذا يدل على أن الفن القبطي كان فنا مشتركا بين المسيحيين وغير المسيحيين من المصريين.

زد على ذلك أن على كثير من المباني رسوما حيوانية كصيد الأسد أو الغزال أو الطيور أو مناظر لبعض نباتات مصر كالنخيل واللوتس والبردي والرمان. وأن أصل الكثير من هذه الرسوم يرجع إلى مصر الفرعونية، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة.

وفوق هذا عثر المنقبون على آثار قبطية هي عبارة عن أدوات زراعية كالفأس والشرشرة –ومصر بلاد زراعية – أو أدوات طبية، كالمرود والسكين والمقبض، أو أدوات الكيل، والوزن، أو أدوات الكتابة، أو أدوات الطهي، أو أدوات النسيج، والكثير منها يرجع في أصله إلى مصر الفرعونية.

ولا داعي للقول بأن كل هذه الأشياء لا تمت إلى الدين المسيحي بأن صلة مما يؤيد الرأي الذي نقول به، وهو أن الفن القبطي تأثر بمؤثرات دنيوية (مدنية) فوق تأثره بالمؤثرات الدينية المعروفة، فالفن في كل عصر وفي كل بلد إنما هو ترجمان للحياة في شتى نواحيها.

ويرجع كثير من الرسوم الجصية التي كانت تزين بها بعض المباني القبطية في أصلها إلى نقوش فرعونية أو زينة فرعونية، بل إنها كانت تصنع بنفس الطريقة الفرعونية. وكذلك كان التصوير بالألوان على لوحات المومياء يرجع إلى تطور العادات المصرية الفرعونية.

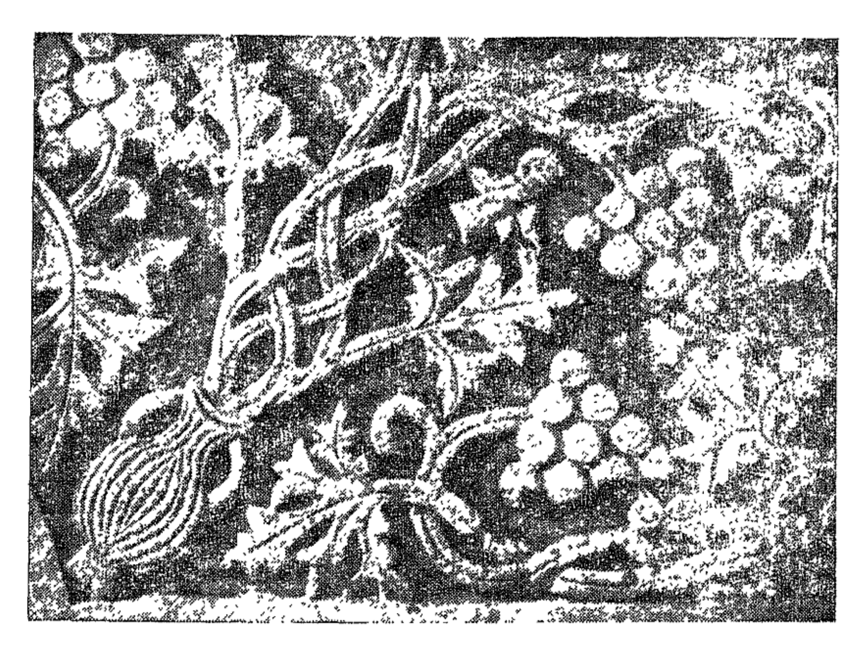
وهناك كثير من الرسوم التي وجدها العلماء مرسومة على قطع من القماش تعبر في مرماها عن أشياء لا تمت للدين بصله ما، رغم أنها رسمت بعد أن أصبحت المسيحية دينا رسميا للدولة الإمبراطورية الرومانية التي كانت مصر في القرن الرابع الميلادي إحدى أجزائها.

ومما يقطع بصحة رأينا تلك الرسوم الكثيرة التي وجدها العلماء على جدران بعض الكنائس والأديرة التي لا علاقة لها بالدين إطلاقا، وإنما

هي ترمز إلى صور من الحياة المادية، فمثلا: ما علاقة عصفور يأكل عنيا (صورة رقم **1**) أو صور أشجار وفواكه وأزهار أو صور هندسية بالدين؟

بل من الطريق أن القبطي لم تفته روح الدعابة والمرح التي ورثها عن أجداده قدماء المصريين، إذ ضمن رسومه حكما وأمثالا كانت متداولة في مصر الفرعونية، ولا يزال بعضها مضرب الأمثال حتى وقتنا الحاضر. مثال ذلك: لعبة القط والفأر المرسومة على جدران أحد مباني باويط.

وإذا ذهبنا مع هؤلاء العلماء مذهبا بعيدا لوجب القول بأن الفن القبطي (الفن البيزنطي في نظرهم) وجد معاصرا للعصر المسيحي بمعنى أنه لم يوجد قبل هذا العصر ما يسمى فنا قبطيا.

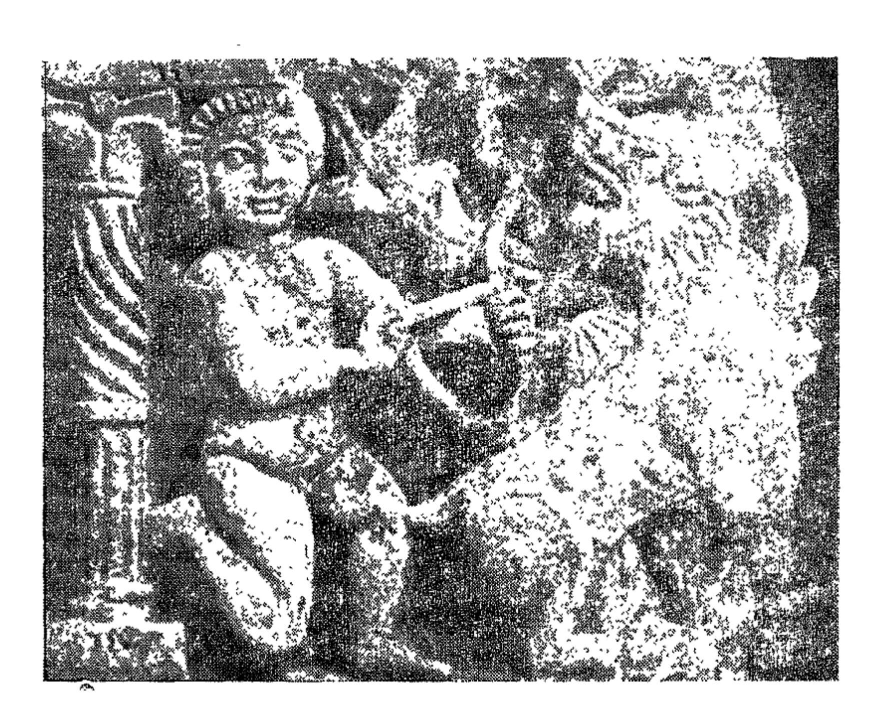


صورة رقم 1 (**تصوير المتحف القبطي**)

ولكن إذا عرفنا أن الفنون التي نمت وازدهرت في أنحاء مصر أثناء الحكم اليوناني الروماني، أثرت في الفن اليوناني الروماني نفسه، وقد قلد اليونان والرومان في عمائرهم الكثير من أساليب العمارة الفرعونية وزخرفتها، وجب أن نخرج بنتيجة وهي أن الفن القبطي وجد قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع تحديده نوعا بدخول الإسكندر الأكبر مصر حوالي سنة 332 قبل الميلاد، حتى لا يخلط بين الفن القبطي المصري والفن القبطي الفرعوني كما يجب أن نسميهما؛ فقد ثبت أنه كان للمصريين في العصر السابق للمسيحية فن مجيد ونهضة فنية رائعة رن صداها في كافة الأرجاء، وتأثرت بها سائر البلدان المجاورة.

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نوافق على رأي العلماء من أن الفن الذي ظهر في مصر في هذا العصر كان فنا يونانيا رومانيا فحسب، أو نوافق على رأي الفريق الآخر من أن الفن الهيلينسي وهو المزيج من اليوناني المتأخر، وفن بعض الشعوب الشرقية كفارس وسوريا وبابل هو الذي ساد في هذا العصر في مصر.

وإننا لا ننكر أن الفن اليوناني الروماني أثر بدوره في الفن القبطي المصري ولكن هذه الظاهرة ظاهرة تأثير الفنون المعاصرة للفن المصري على الفن المصري نجدها في الفن الفرعوني إذ تأثر الفن الفرعوني في عصر الوحدة الثالثة بالفنون الأجنبية المعاصرة له.



2ـ صيد الأسد (تصوير المتحف القبطي)

وهذا لم يخرج الفن المصري عن صفته الفرعونية كذلك الفن القبطي لم يتأثر بالفنون المعاصرة له تأثيرًا يجعلنا أن نطلق عليه «بيزنطي».

بل كان يوجد معاصرًا للفن القبطي المصري فن يوناني روماني في أرض مصر للطبقة الحاكمة وجاليتها وهي يونانية ثم رومانية بطبيعة الحال، ولا يدعو كل ذلك إلى ضم هذا الفن (أقصد فنهم اليوناني الروماني) إلى الفن القبطي لأن الفن اليوناني الروماني فن قائم بذاته، وعلى هذا الأساس لا أضم كثير من الآثار المعروضة في المتحف القبطي إلى الفن القبطي على سبيل المثال الآثار التي عليها قصة ليدا أو شكل القنطور أما الفن القبطي

العربي فقد تأثر ببعض التوجيهات التي أتى بها العرب منذ سنة **641** ميلادية.

والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التي بيناها نستطيع أن نؤكد بأن الفن القبطي ليس كما يقول العلماء فنا دينيا مسيحيا محضا، وإنما هو فن مصري له مؤثراته وأغراضه الدنيوية، كما أن له أغراضا ومؤثرات دينية.

ومما يعزز قولنا هو تفرع اللغة القبطية إلى لهجات منها: اللهجة البحيرية، والصعيدية، والأخميمية، والفيومية، التي تدل دلالة واضحة على التطور الإقليمي للغة المصرية القديمة.

ولم تؤثر اللغة اليونانية على القبطية إلا من حيث بعض حروف الهجاء وبعض المفردات الدخيلة. وظاهرة دخول كلمات أجنبية في اللغة المصرية القديمة نجدها أيضًا في عصر وحدة مصر الثالثة وهذا لم يخرج اللغة عن صفتها المصرية.

أدوات زينة المرأة في العصر القبطي

ذكرنا أن الفن القبطي قام قبل ظهور المسيحية بزمن طويل نستطيع إلى حد ما تحديده بعصر دخول الإسكندر الأكبر مصر حوالي سنة **332** قبل الميلاد، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري. والفن القبطي الفرعوني، أما الفن القبطي العربي فيبدأ بعد دخول العرب مصر.

ومن الخطأ أن يتصور المرء أن المصريين الأقباط لم يحفلوا بالعناية بجمال المرأة، والجمال في المرأة ينقسم إلى قسمين أساسيين:

أولا- الجمال الحسي، وهو جمال الوجه والبدن أو بعبارة أخرى الجمال الجسدي.

ثانيا- الجمال المعنوي، وهو جمال الروح والعقل أو الجمال الروحي وكل منهما يبعث في نفس الرجل الإعجاب والاستحسان، فالأول طريقه الحواس، والثاني طريقه الشعور الباطن.

وموضوع هذا البحث يتعلق بالقسم الأول وهو الجمال الحسي وكان يرتكز على أربع دعامات أساسية لتكوين قوة موحدة كاملة تستطيع أن تمتلك جميع الحواس.

فالدعامة الأولى: هي تزيين الوجه، وتجميل الشعر.

والدعامة الثانية: هي تزيين الصدر.

والدعامة الثالثة: هي أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم.

والدعامة الرابعة: هي استعمال الملابس المزركشة الألوان.

فللمرأة القبطية بالجمال غرام فكيف كانت تتجمل؟ وما هي الأشياء التي يزين بها وجهها وبدنها أو ما هي أدوات زينة المرأة في العصر القبطي؟

فكرت المرأة القبطية في تزيين وجهها فاستعملت «الأثمد» الكحل لعينيها وغرام القبطيات بالكحل يدل عليه ذلك العدد الوفير من المكاحل، فعلى سبيل المثال مكحلة رقم **5843** بالمتحف القبطي وهي على شكل عمود ومصنوعة من البرنز أو مكحلة رقم **5854** بالمتحف القبطي وهي على شكل إناء صغير ومصنوعة من الزجاج ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي.

ومن بعد هذا العصر لا يزال إلى يومنا هذا تستعمل بعض القرويات المصريات هذه المكاحل بعينها.

كذلك استعملت المرأة القبطية الأمشاط ودبابيس الشعر لتجميل الشعر فعلى سبيل المثال مشط رقم **5661** بالمتحف القبطي المصنوع من العاج ومنقوش عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكأة على سرير تحته

كلب وبجانب السرير خادمة تحمل طفلا، ولا يمكن لعقل راجح الحكم بأن هذا المشط وما عليه من نقش يشير إلى شيء من الدين مطلقا مع أن تاريخه يرجع إلى القرن الرابع الميلادي أي بعد المسيحية بما يقرب من أربع قرون. ثم لدينا مشط آخر رقم **5655** بالمتحف القبطي يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي ومصنوع من العاج أيضًا ومنقوش عليه رسم يمثل وقوف السيد المسيح على قبر إليعازر؛ فهنا الصورة دينية ولكنها وضعت على مشط والمشط ليس من الدين بشيء، وإنما من أدوات الزينة الدنيوية. ورغما من أن هذا المشط وسابقه من أواخر القرن الرابع للميلاد إلا أنهما يشبهان كل الشبه أمشاط عصور مصر الفرعونية، بل ومشط اليوم المعروف عند العامة «الفلاية».

وكذلك عثر المنقبون على أقراط تعلق في الأذن بعضها على شكل مستدير أو بيضاوي إلى غير ذلك من مختلف الأشكال، ويتدلى من بعضها سلاسل على شكل حبات من الخرز، وقد وجد منها الأستاذ أحمد فخري في حفائر مصلحة الآثار المصرية جهة الواحات البحرية، أقراط على شكل عنقود عنب ومؤرخة في القرن الرابع الميلادي ومصنوعة من الذهب.

فلم يتخذ بعض العلماء من عنقود العنب في الفن القبطي دليلا أو برهانا على المسيحية في الفن، حقا قال المسيح «أنا الكرمة الحقيقة وأبي الكرام» وشبه المؤمنين بالأغصان ومارس العشاء السري (الأفخار ستيا) بعصير العنب، وضرب مثل الكرم والكرامين ولكن معروف أن الله

ضرب مثلا كهذا لشعب إسرائيل قديما (سفر أشعياء: الإصحاح 5) فبالله عليكم قولوا أية علاقة توجد بين قرط تزدان به الأذن وبين المسيحية، وقد وجد مثل هذا الرسم في أقراط من عهد الفراعنة أي قبل المسيحية بآلاف من السنين، أليس العنب كثيرا في بلادنا في العصور الفرعونية والقبطية والعربية والحاضرة، ومن أبدع الزخارف شكلا؟!

ونحن إذا مررنا بحجرات المتحف القبطي رقم 13، 15 لوجدنا مجموعات مختلفة من أدوات زينة الصدر كالعقود على أشكال متنوعة ومصنوعة من مختلف المعادن والأحجار ومنها ما يشابه عقود مصر الفرعونية من بعض نواحي الشكل.

هذا من جهة الدعامة الأولى والثانية. أما الدعامة الثالثة وهي أدوات الزينة لليد والأصابع والقدم أي الأساور والخواتم والخلاخيل إلى غير ذلك فقد وجدت مجموعات متعددة بعضها من ذهب أو فضة، وغيرها من عاج أو عظم إلى غير ذلك من مختلف الأنواع والأشكال وهي لا تخالف ما يماثلها من آثار العصر الفرعوني وما يماثلها من أدوات زينة العصر الحاضر في شيء يذكر.

والدعامة الأخيرة فكفى ما يلاحظ من زركشة في الملابس المعروضة بالمتحف القبطي وبعض نقوش مرسومة على الصناديق المصنوعة من العاج الملون في حجرة رقم 13 بالمتحف القبطي لسيدات أنيقات تمسك إحداهن مرآة في يدها. أضف إلى تلك الدعامات أوان كثيرة

للمواد العطرية موجودة بالمتحف القبطي ويرجع تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس.

مما تقدم يستنتج أن الزينة الجسدية وأدواتها بأشكالها المختلفة وأنواعها المتعددة هي لمحض الجسد ولا علاقة لها بالدين، وفي هذا دليل قاطع على أن الفن القبطي ليس خلوا من الأثر الدنيوي.

الفصل الخامس

بحوث أدبية

1- روائع الأدب المصري القديم

2- اللغة القبطية

روائع الأدب المصري القديم

المصريون من أقدم أمم الأرض عراقة في المجد ورسوخا في المدينة؛ فقد استوطنوا وادي النيل قبل ميلاد المسيح بما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة تقريبا، وأقاموا الحضارة العظيمة التي بهرت أنظار العالم القديم وظلت مزدهرة حقبا طويلة من الزمن.

وإن آثارها الباقية حتى اليوم من أقدم المخلفات التي تركها الإنسان الأول، وليس من شك في أن المصري القديم قد صاغ تراثه الفكري في المؤلفات الأدبية بأسلوب جميل لا يدانيه ما ورثه أي شعب آخر من أسلافه.

ومن المؤلفات الأدبية الفرعونية ما يتصل بالآداب الدينية، ومنها ما يتصل بالآداب الدنيوية. وسأقصر كلامي على دراسة الآداب الدنيوية في عصور وحدة مصر الزاهرة وعلى بعض عصور تفكك الوحدة.

كانت الآداب الدنيوية في عصور وحدة مصر الزاهرة تقوم إما على نوع من الأدب العلمي الذي وصل إلينا في شكل حكم أو أمثال، وإما على نوع آخر يعرف بالغزل، وإما على نوع ثالث يعرف بالأدب القصصي.

فمن أنواع الأدب العلمي الذي وصل إلينا كالحكم والأمثال تعاليم الوزير بتاح حتب والوزير كاجمني منعصر الوحدة الأولى، وكتعاليم آني وإمن — أم – أو بي من عصر الوحدة الثالثة. وأما من عصر الوحدة الثانية فلدينا حكم وتعاليم من الملك أمنمحات الأول لولي عهده سنوسرت، وهي كلها تعاليم موجهة للشباب في قالب نصائح إلى أبناء الكتاب السابق الذكر، لتقويم أخلاقهم ودعوتهم للفضيلة وعمل الخير وحسن السلوك. وهاك مقتطفات من روائع تلك التعاليم:

أولا: التمسك بالصدق

«إذا كنت قائدا آمرا فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص في طبيعتك فإن الصدق جميل وقيمته خالدة – بتاح حتب».

«إن السكين ترهف لمن يحيد عن الصدق – كاجمني»

« قل الحق أمام القاضي – أمن– أم – أوبي».

ثانيا: أدب السلوك في الضيافة

«إذا هيىء لك الجلوس على مائدة من هو أكبر منك مقاما فخذ ما يقدم لك مما هو أمامك ولا تنظرن إلى ما وضع أمامه، بل انظر إلى ما وضع أمامك – بتاح حتب»

«إذا جلست مع أناس كثيرين فانظر إلى الطعام في غير شره أو اهتمام حتى وإن كنت تشتهيه، فإن ضبط النفس لا يكلف الإنسان أكثر من لحظة، وإنه لمن العار أن يكون الإنسان شرها فقدح ماء يروي الغلى -كاجمني».

ثالثا: التحذير من النساء

«إذا أردت أن تحتفظ بالصداقة لسيد أو أخ أو صاحب دخلت داره فاحذر الدنو من النساء فآلاف من الرجال ذهبوا ضحيتها - بتاح حتب»

«هل حدث أن النساء اصطففن في ميدان الحرب؟ - أمنمحات»

«خذ حذرك من المرأة الأجنبية تلك التي ليست معروفة في بلدها ولا تغمزن لها بعينك - أني»

رابعا: الحث على الزواج

«هيئ لنفسك دارا وأحبب زوجتك وأجلب لها الطعام واستر ظهرها وقدم لها العطور وابعث السرور في قلبها طيلة حياتك فهي حقل نافع لزوجها - بتاح حتب»

«اتخذ لنفسك زوجة وأنت لا تزال شابا لتنجب لك ولدا، ويجب أن تنتجبه لك وأنت لا تزال صغير السن. فما أسعد الرجل الكثير النسل، فإنه يحترم بسبب أولاده – أبي»

خامسا: التحري عن أخلاق الأصدقاء

«إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسأله ولكن اقترب منه ولكن معه وامتحن قلبه بالمحادثة، فإذا أفشى شيئا قد رآه أو أتى أمرا يجعلك تخجل له فاحذر عندئذ حتى من أن تجيبه – بتاح حتب»

سادسا: الولاء للعرش

«إن الولد النجيب يقيم الحق وسيكون الملك مرتاحا لك في كل ما يجرى فقد بلغت العاشرة بعد المائة وحباني الملك بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد لأني أقمت العدل للملك – بتاح حتب».

سابعا: سلوك الرئيس نحو مرءوسيه

«خذ الحذر من مرؤوسك ولا تثقن بأخ، ولا تصطفين لك خلانا، لأن ذلك لا فائدة منه وعندما تكون نائما كن الحارس لنفسك – أمنمحات».

ومما خلفته مصر غير الأدب العلمي الذي يبين مقدار تقدم التفكير البشري في هذه العصور السحيقة وما يقوم به من جهد في الفكر بجانب غزارة المادة العلمية فإننا نجد نوعا آخر من الأدب يعرف بالغزل وقد رأينا عند الكلام على الموسيقى كيف أن الشاعر يصف في خياله الرائع أنه كان مريضا وعندما استدعي الطبيب لعيادته جاءت حبيبته فزجرت الطبيب لأنها أعلم بداء حبيبها ودوائه.

هذا فضلا عن نوع ثالث من الأدب يعرف بالأدب القصصي يمتاز بالوصف والخيال وتصوير البلاد النائية كسوريا وبلاد البونت (الصومال) التي قام الكتاب برحلاتهم إليها. وهاك مقتطفات من هذا الأدب على سبيل المثال لا الحصر:

(قصة الغريق): يرجع تاريخها إلى عصر الوحدة الثانية، أراد كاتب هذه القصة أن يصور البلاد النائية التي كان يرتحل إليها وما فيها من عجائب فيقص إنه كان مسافرا على ظهر سفينة إلى بعض الأصقاع الغنية بمعادنها ليؤدي رسالة ملكية، وحدث أن هبت عاصفة فحطمت السفينة وغرقت بمن فيها ولم ينج إلا كاتب القصة بعد أن لاقى من الأهوال في بادئ أمره ما لاقى حتى حملته الأمواج إلى جزيرة فيها من عجائب المخلوقات ثعبان كبير له رأس إنسان.

ثم ذكر على لسان ذلك الثعبان أنه أخذ يقص له مجازفة حدثت له وتشبه مجازفة كاتب هذه القصة بعد أن استقبله أحسن استقبال ويقول أن سفينة مصرية مرت بالجزيرة وحملته إلى أرض الوطن بخير وسلام.

وبخلاف المظاهر التي امتاز بها الأدب في عصور الوحدة من حكم وأمثال إلى غزل وقصص، نلاحظ أن نجاح سياسة ملوك عصور وحدة مصر، ووحدة وادي النيل لم يؤثر فحسب في حياة البلاد الاقتصادية وزيادة الرخاء، بل نجد نصوصا أدبية تتحدث عن ورود الكثير من الخيرات.

ويرجع الفضل في هذا النجاح إلى عناية الملوك بشؤون الدولة وإسناد الوظائف والمراكز المهمة إلى أشخاص يتمتعون بثقتهم إلى جانب كفاءهم الممتازة. ومنهم من يتحدث فيشير إلى أنه كان صديق الملك فاستطاع أن يقوم بالمهام الموكولة إليه على الوجه الأكمل.

وطبيعي أن تبلغ البلاد أوج مجدها في عهود الوحدة بفضل التفاف الشعب حول مليك الوادي ملك مصر، وبفضل جيل الموظفين الذي عمل ملوك الوحدة على تنشئته ليلتف حول عرشهم وليكون لهم نصيرا، فنرى هؤلاء الموظفين حريصين على بث روح الطاعة والمحبة لمليكهم بين ذويهم فيسردون لهم ما أنعم به عليهم فرعون مصر من تقدير، بل ويشبهون عطفه عليهم بعطف الوالدين، وأكثر من ذلك فقد شبهوه بالإله على الأرض.

وبينما نرى النصوص الأدبية السالفة الذكر تبين لنا أن قوة الوطن تكون على أتمها حين يلتف شعب الوادي حول عرش ملك مصر، رمز الوحدة والاتحاد، والقوة والضمان الأول والأخير لكل مواطن وهو السبيل إلى نيل المطالب وبلوغ الآمال، نرى نصوص عصر تفكك الوحدة

تبين لنا أن هناك فوضى عامة امتدت إلى كل نواحي الحياة المصرية.. كما أن نصوصا أخرى من عصر تفكك الوحدة تبين ضياع هيبة مصر في الأقطار الأخرى فليس أدل على ما كانت تعانيه مصر في عصر تفكك الوحدة الأولى من فوضى من أن الآثار الأدبية التي أنتجها هذا العصر كانت صدى لتلك الفوضى فتحوي الكثير من الأفكار التي تتمخض عنها مادة الثورات الاجتماعية والسياسية، ولنذكر مثالا على ذلك نرى منه مناقشة بين رجل كره الحياة وبين روحه وهي مكتوبة على بردية محفوظة الآن بمتحف برلين. وقد صور فيها كاتبها رجلا بائسا مثقلا بهموم عصره لم يجد غير روحه يشكو إليها مصابه، فأظهر لها رغبته في أن يضع حد لحياته بأن يحرق نفسه. وقد ألحت روحه في أن يخطو هذه الخطوة ولكنها امتنعت عن مرافقته في الانتحار لأنها خشيت أن يسوء مصيرها مع شخص فقير مثله لا قبر يأويه، ولا خلف يقدمون له القرابين فتكون النتيجة أنها تصبح مهددة بالجوع والبرد والحر، ولكن بعد محاولات نجح الرجل في النهاية وأقنع روحه بالاندماج معه عند الموت ثم أحرق نفسه ومات.

وهناك نصوص وصلت إلينا في أناشيد شعرية (93) منها:

«إلى من أتكلم اليوم، الإخوان شر، وأصدقاء اليوم ليسوا محبين

«إلى من أتكلم اليوم، الناس يسرقون وكل إنسان يغصب متاع غيره

(93) يمتاز الشعر بأوزان خاصة.

«إلى من أتكلم اليوم، إني مثقل بالهموم وفي حاجة إلى صديق وفي

«إلى من أتكلم، الرذيلة تضرب الأرض وليس لها نهاية»

وهناك نصوص معروفة بأغاني العواد منها:

«امض اليوم في سعادة وحبور، وانظر فلا أحد يستطيع أن يأخذ متاعه معه، وانظر فليس من يستطيع العودة للحياة ثانية».

فهذه الجملة الصغيرة تدلنا على ما تطرق إلى المصريين من الشك في تقاليدهم وعقائدهم وحتى في عقيدة الخلود، كما تدلنا على اتجاه المصري إلى التمتع بالحياة المادية.

فبينما كانت النصوص السابقة تبين لنا الفوضى التي امتدت إلى كل نواحي الحياة المصرية في عصر تفكك الوحدة الأولى، نجد أن قصة ونآمون تبين ضياع هيبة مصر في الأقطار الأخرى في عصر تفكك الوحدة الثالثة بعد أن كانت مصر متمتعة بسلطان واسع في عصور الوحدة بين أمم الشرق القديم.

اللغة القبطية نشأتها وتطورها

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية – نشأها وتطورها – يجدر بنا أن نعرض لهذا اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقه لأن البحث عن أصل الكلمة يميط اللثام عن معالم كثيرة تنير الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ. فلفظ (قبطي) تسمية إلى (قبط). وهنا نرى ياء النسبة العربية.

أما كلمة (قبط) فهي تحريف للفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعد حذف السابق (أي) واللاحق (وس) وبقيت كلمة – جبط– بالجيم المعطشة التي تنطق عادة (ق)، لذلك كتبت الكلمة بها أي (قبط) بمعنى مصري.

ولا شك في أن يونانية هذا اللفظ الخاص بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان، فالتاريخ يحدثنا، والآثار تؤيده، على أن العلاقات اليونانية المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر الوحدة الثالثة (**1580– 1085**) ق.م. وذلك أن بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم.

وأخذت هذه الصلة تنمو تدريجيا حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر. وبعد دخول قمبيز عاهل الفرس البلاد

نزح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علماء اليونان ومفكريهم الذين عنوا بدراسة تاريخ مصر وآثارها. ودينها وأخلاق أهلها، نذكر منهم هيرودوت المؤرخ، وأفلاطون الفيلسوف، وهوميروس الشاعر، وأرفيوس الموسيقي، وغيرهم. وهكذا أصبحت مصر كعبة القصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى إن (يسماتيك الأول) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين وأول ملك من ملوك عصر الوحدة الرابعة منح الجالية اليونانية جزاء المساعدة التي قدمها له جنود اليونان بعض الأجزاء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم، كالحي الخاص باليونانيين في بلدة منف وفي بلدة دفنه. ثم في عصر الملك أحمس الثاني خصصت لهم مدينة (توقراتيس) وموقعها الحالي بالقرب من صفط الملوك.

لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بقدوم الإسكندر ويرسم كهنة آمون له ابنا لكبير آلهتهم آمون ومنحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة. توفي الاسكندر وورثه البطالمة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية إلى جانب القبطية، وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعدت العلاقات الثقافية إلى السياسة إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة (332 ق. م. إلى 30 ق.م). وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني، وكافي أيضًا لأن يلمس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، فبينما الكتابة اليونانية، وإن كانت

من أصل مصري، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت، إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة؛ لذلك شعر المصريون بالحاجة القصوى إلى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة إلى الأبجدية اليونانية التي كانت المصريون قد أخذوا في استعمالها بخاصة في كتابة أسماء الأعلام.

ثم قاد هذه الحركة فيما بعد العالم الإسكندري (بونثينوس) وتلاميذه المصريون حوالي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد؛ فقد نقحوا الإملاء القبطي وكتبوا اللغة في الأبجدية اليونانية البالغ عدد حروفها أربعة وعشرين حرفا، وأضافوا إليها سبعة حروف وهي (شاي وفاي وخاي وهووي وجنجا وكشيماوتي) أخذت من الديموطيقية لعدم وجود أصواتها في اليونانية. ثم أضافوا حرفا آخر وهو (صو) الذي يستعمل للدلالة على العدد «**6**» كما هو الحال في اليونانية. ومن حسن الحظ أن حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع إلى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية دينا رسميا للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد أيام حكم نيرون على يد القديس مونس عام **54** م من أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعها العلامة (جريفت) (**94**) والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره (أرمان) (**95**) فهذان النصان يعالجان أموراً تتصل بالسحر والفلك لا علاقة لها

(94) F. L. L. Otiffith, The old Coptic Horoscope of the Stobar CoIIection, Aeg. Z 38, pp. 71 - 85

(95) A. Eiman, Die aeg. Beschwoerungen des grossen Pariser Zauberpapyrus, Aeg. Z 1883, p. 89

بالمسيحية بتاتا؛ ففي البردية الأولى نجد ذكرا لنجم السعد، وآخر لنجم النحس، كما يوجد في النصين دعاء إلى أوزيريس إله الموتى، وأنوبيس إله الجبانة ورع وإيزيس. وغير هذه الكتابات عثر في أخميم على بطاقات للمومياء يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الإمبراطور هدريان وقد نشرها (شتيندورف) (96). وكلما تقدم بنا العهد نجد المسيحية تتثبت في مصر فتهزم أمامها الوثنية ويضطر الإمبراطور قسطنطين إلى الاعتراف بها دينا رسميا له وللدولة حوالي عام 325م. وحول خلفه بعض المعابد المصرية القديمة إلى كنائس، كما أغلق الباقي منها. ثم جاء الإمبراطور (جوستنيان) فأرسل قائده (نرسيس) إلى جزيرة الفيلة حيث قضى على البقية الباقية من عبادة إيزيس وأوزوريس. وهكذا ترى المسيحية تعزز بعد أن قدمت من أبنائها الشهداء الكثيرين أيام حكم (وقلسيان) حوالي عام 284م. فأصبحت مصر بعد ذلك معقلا للمسيحية ووطنا للديورة والرهبنة، واستطاع الأقباط أن يخلقوا فنا قبطيا متأثرا باليوناني حينا وبالفرعوني حينا آخر.

***

أما اللغة القبطية وآدابها فقد استمرت حية حتى القرن العاشر الميلادي بدليل أننا نجد الأسقف ساويرس بن المقفع يقول ما معناه إن القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما أننا نعرف من جهة أخرى أن كثيرا من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم

---

(96) Steindorff, Aeg. Z. 1890. p. 49 : Die Mumien Etiketten

العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية. وظلت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان. الذي أحل العربية محلها سنة **714**م. ولما كانت سنة **997**م قام الحاكم بأمر الله بن عبد العزيز أحد ملوك الفاطميين وأمر بإبطالها لغة حية.

واللغة القبطية كغيرها من اللغات تنقسم إلى لهجات، وقد ظهر ذلك جليا عند استخدام الأبجدية اليونانية لاستخدام الحروف الصائتة إلى جانب الصامتة (المتحركة والساكنة) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط. ونحن نستطيع أن نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع أن نجزم بوجود أكثر من لهجتين في العصر الفرعوني، وأشهر اللهجات القبطية هي:

أولا: البحيرية التي كانت أصلا لهجة الإسكندرية عاصمة مصر الرسمية، أيام اليونان والرومان، وما جاورها في الوجه البحري. ومما زاد في انتشار هذه اللهجة انتقال بطاركة الإسكندرية إلى (بابليون) أي الفسطاط أو مصر القديمة، ثم إلى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للكنيسة. وما تزال هذه اللهجة مستعملة إلى اليوم فقط في العبادات في الكنائس الأرثوذكسية وبين قليل من الأسر، ويلاحظ أنها أكثر اللهجات تأثرا بالمفردات اليونانية لقربها من مواطن الثقافة اليونانية.

وإننا لا ننكر أن هناك بعض كلمات دخيلة يونانية في اللغة القبطية، ولكن هذه الظاهرة ظاهرة دخول كلمات أجنبية في اللغة المصرية القديمة نجدها في عصر وحدة مصر الثالثة؛ فبعد غزو الهيكسوس

لمصر دخلت كلمات كنعانية كثيرة في اللغة المصرية القديمة، وهذا لم يخرج اللغة عن صفتها المصرية.

ثانيا: اللهجة الصعيدية، وهي لغة أهل طيبة (الأقصر) ومعظم سكان الصعيد الأعلى

ثالثا: اللهجة الأخميمية، وهي خاصة بأهل أخميم وأقرب اللهجات إلى المصرية القديمة وأبعدها تأثرا بمفردات اللغة اليونانية، وذلك لبعدها عن الأوساط الأجنبية.

رابعا: اللهجة الفيومية، وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان.

***

هذه نظرة عاجلة عرضت فيها للغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت أن لفظ «قبطي» هو اسم يطلق على أبناء مصر مسيحييها ومسلميها. ونذكر هنا حقيقة يجهلها بعض العلماء إذ يظنون أن آداب اللغة القبطية دينية محضة، والواقع غير ذلك، فهي إلى جانب ما حفلت به هذه الآداب من سير القديسين والبطاركة والأناجيل لم تقف عند الجانب الديني فحسب بل تناولت الجانب الدنيوي؛ فهناك نصوص تتعلق بالتاريخ وبالقانون كعقود البيع أو الميراث وبالرسائل والصكوك وما يختص منها بالضرائب أو التجارة، كما أن هناك نصوصا دنيوية أخرى تتصل بالفلك والسحر والطب [97]. وهنا أرى أن من الصواب تسمية اللغة القبطية

(97) نجد أيضًا أصول اللغة القبطية متشعبة من العصر الفرعوني؛ فمئات من المفردات القبطية التي يستعملها المصري في التعبير عن حاجة الفرد في حياته اليومية من مأكل وملبس

باللغة المصرية القديمة في آخر مرحلة من مراحل تطورها، وإن كانت مكتوبة بالخط القبطي الذي هو مزيج من الأبجدية اليونانية والديموتيكية، فأمامنا مثل في العصر الحديث هو أن اللغة التركية في حالتها الأولى وهي كتابتها الحروف العربية، والثانية وهي كتابتها الحروف اللاتينية لم يمنع ذلك من إطلاق اسم التركية عليها.

ومشرب وما إلى ذلك من مرافق الحياة في الزراعة وغيرها، ترجع أصولها إلى اللغة الفرعونية المصرية، كما أن أصول نحو اللغة القبطية كأدوات التذكير والتأنيث والضمائر ترجع إلى نحو وأجرومية اللغة المصرية الفرعونية.

أهم المراجع العربية

إسماعيل مظهر	– بداءة عصر البطالمة – 1938
إقلاديوس بك لبيب	– قاموس اللغة القبطية
« «	– مجلة عين شمس
سليم بك حسن	– مصر القديمة 1940
« «	– الأدب المصري القديم 1945
زكي علي	– الإسكندرية (مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول سنة 1945 صحيفة 118 وما بعدها)
الدكتور حسن كمال	– كتاب تاريخ مصر (ترجمة لكتاب جيمس هنري برستد)
محمود بك حمزة	– دليل المتحف المصري – 1935
مريت بك غالي	– دليل معرض الآثار القبطية 1944
مرقص باشا سميكه	– دليل المتحف القبطي
د. محمد عبد المنعم بدر	– القانون الروماني سنة 1947
عبد القادر باشا حمزة	– على هامش التاريخ المصري القديم سنة 1940
عبد العزيز عبد الرحمن	تاريخ الطب والصيدلة – 1939
دكتور نصحي إبراهيم	– تاريخ مصر في عصر البطالمة 1946

أهم المراجع الأجنبية

- Agyptisches Worter buch
- Agyptische ln chriften aus den koniglichen Museen zu Berlin
- Z. __ Zeitschrift fur agyptische Sprache und Altertumskundhe, herausgegbene
- von G. Steindorff und W. Wolf, bis 1939
- Annales du Setvice des Antiquites de l'Egypte
- -Anthes, R., Ein bisher unbekanntes Exemplar der Dienstordnung des Weaieres iu
- Mélanges Maspro I S. 155
- Breaste'd, J.H A History of Egypt, New York 1908 (Ubersetzt von H. Ranke " Ges - chichte Agybtens, 1937)
- Ancient Records of Egypt, 5 Bde. Chicag) 1927 (abgekirzt) Anc. Rec.
- Bonnet, H., Die Waffen des alten Orients, Leipzig 1926.
- Drioton, Et. et., J. Vandier, Les Peuples de I'Orient Méditerranéen
- Griffith, The Abydos Deeiee of Seti 1 at Nauri
- Gauthier, Les Names d'Euyptc, Nem. Inst. 25

- Hanotaux, Hist. de la Nation Egyptienne
- Kueutz, Ch. La Bataille dc Qadech
- Legrain, G. Au Pylone d'Almhabi a Kamak Recherches Geneologyues, in Rec. 31, 201
- Lepeius, B. Denkmaler ans Ag. u. Aethiopten (ubgek. L. D.)
- Lefebvre, G.1nscripttons concemant Ies Grande Pretres D'Amon Rome-roy et Amenhotep
- Histoire des Grands Pretre‘ d' Amon de Karnak
- Linke, A. Correspondenzen aus der Zeit d. Ramessiden.
- Mariette, A., Mounmente Dlvers
- Maspero, Histoire ‘
- Moret Histoire de I'Egypte pharaonique
- التي طبعت تحت Hanotauxالجزء الثاني من مجموعة رعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول.
- Meyer, Ed. Geschichte
- Mluller, Max, Der Bunlnisver rag Ramses II
- Newberry, The Life of Rekhmara
- Neville u. Hall, The XI. Dyn. Temple at Deu-et -Bahary

- Otto, W., Priester und Tompl in Hellenistischen Agypten
- Baton, D., Early Egyptian Record of l ravel
- Scharff, A., (l) Ein Denkstein des Vezirs Rahotep
  - (2) Hazemhabi, in Brunton, Great ones
  - (3) Ein Rechnungsbueh d. konigl. Hofes
  - (4) Handbuch der Archalogie
  - (5) Agyptologische Forseh ungen
- Seidl, E., Rechtsgeschichte, ubersctzungcn und Abhandlungen zum vorpto-
- lemaisehen Rechte Agyptens in Kritische Virttlihahresschrift fur Geset-
- zgebung und Rechtswiss. . .
- Sethe, K., Der angebliche Beucht im Haremhabs Verheiratung in seiner
- Thronbestergungsinschrift, in Ae. Z. 44 S.35,
- Die angebhche Rebellion des Hohenpriesters Amenhotp unter Rumse IX.
- Untersuchnngen z. Geechichte u. Altertumskunde Agyptens
- Die Prinzenliste von Med net Habu

- **Sethos I. and die Erneuerung d. Hundssterr periode in Ae. Z 66 S. 1**
- **Der Denkstein mit de?? Duum des Jahres 400 der Aera von Tunis**
- **Urkunden der 18. Dynastic**
- **Die Berufung eines Hohenprieste? des Amon untea ramses Il. I. A Z. 44, S. 30**
- **Einsetzung des Ve zirs**
- **zaki y. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan 1947.**

الفهرس